احتضار وطن

تأليف: محمد ظلال المعلم

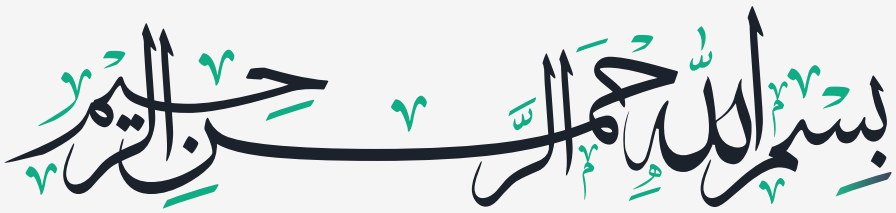

{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {سورة الحج: 40}

تأليف: محمد ظلال المعلم

المقدمة

الهجـرة مـن الوطـن هـي هجـرة القلـوب والأرواح قبـل الأجسـام، وتـرك الوطـن أشـدُّ إيلامـاً مـن تـرك الحيـاة نفسـها، كأنَّـه والمـوت واحـدٌ، ذلـك الوطـن الَّـذي تغنـى فيـه الشُّـعراء، وتحـدَّث عنـه الفلاسـفة العظـام ولكـن لـم يوفِّـه أحـدٌ حقَّـه أو يقـدّر قيمتـه حـقّ تقديرهـا.

هـو بيـت ومسـتقر وكاتـم أسـرار ومسـتودع ذكريـات، ومـاضٍ وحاضـر ومسـتقبل، هـو أبٌ وأمٌّ وأخ وأخـت وولـد وزوجـة، هـو قصـة حـبل سـرّيٌّ بيـن أمٍّ وجنينهـا ؛ لا ينقطـع حتَّـى وإن أكلـت الأرض بقايـا الرّمـم البالية، وحتَّـى إن انسـلخت الـرَّوح عـن توءمهـا وصعـدت إلـى خالقهـا، إنَّـه الوطـن يـا سـيِّدي وكفـى

أرض الخيرات

في بيت مليء بالفرح والسَّعادة والتَّفاهم ؛ عاشت أسرة مكوّنة من أبوين وابنتين وغلامين في مدينة على أطراف دمشق تسمى عربين، تبعد عن العاصمة سبعة كيلو مترات، ولا أعلم أصل هذا الاسم! ربما من السّريانية القديمة، وتعني الغربال، حقيقة من سماها بهذا الاسم كأنَّه كان يقرأ المستقبل، فهذه المنطقة الصَّغيرة الَّتي لا يتجاوز عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة كشفت وغربلت قوى الظَّلام في العالم بأسره، وكانت هذه البقعة المباركة تُعبِّر في وجدان أهل سوريا عن أنها الأرض الغنّاء ذات السُّهول الخصيبة المعطاء، ويكفي أنَّ نهر بردى الَّذي تغنّى به الشُّعراء وألهم جماله الأدباء إبداعاتهم، يمرُّ في وسطها ليسقي أهلها وسهولها ماء زلالاً أضفى عليهم جمالاً وسماحة

بالمحصلة هي في ذاكرة كلّ من سمع بها أو عاش على أرضها أو حتَّى مرَّ قربها ؛ جنّة الله في أرضه، وكما هي أرض عربين طيبة الأرومة أنتجت أناساً طيبين، وكأنَّها بصمت بخيراتها وطبيعتها الجميلة على وجوه أهلها فصاروا أجمل منها وأرقَّ أفئدة، هي جزء من غوطة الأمويّين، وكلُ الغوطة جميلة كعربين

عائشة البنت البكر لهذه العائلة متزوِّجة بعثمان ابن عمها وخالد أكبر الذكرين يليه عمر، وحفصة آخر العنقود، وقد سُمّيتا بهذين الاسمين تيمّناً بزوجات الرَّسول عليه وعلى آله وأصحابه الصّلاة والسَّلام
كان أبو خالد يمتلك متجراً كبيراً لبيع المواد الغذائية في السُّوق الرَّئيس في المدينة، وحالته المادية جيّدة، ولم يكن له أيُّ نشاط سياسي أو اهتمام بأمور السِّياسة، كحالة معظم أهل سوريا، فقد اقتنعوا بحكم

الأقلّيّة النُصيريّة، وأيقنوا أنَّ العين لا تقاوم المخرز، وابتعدوا عن كلّ الخطوط الحمراء الَّتي وضعتها العصابة الحاكمة لهذا البلد، وجعل كلّ اهتمامه بأسرته وتجارته وحياته

في ربيع عام /2011/ بدا كأنَّ الأمور ذاهبة لرفض شعبي، وانتفاضة ضخمة عارمة وزلزال عظيم لا يبقي ولا يذر، سيقتلع هذه العصابة المارقة من كلّ قانون أو عدل من جذورها إلى غير رجعة

فالتَّمرّد على ظلم امتد عقوداً طفا على السَّطح كاسراً كلّ خوف أو حذر من بطش عصابات الحاكم الملهم الخالد المسمى أسداً زوراً وبهتاناً

في بداية الأمر لم يكن أبو خالد مهتماً بما يجري على السَّاحة السُّورية من تفاعل وحراك ومدٍّ وجزر، فقد تابع عمله دون أن يعطي الأمر أهمِّيَّةً، إذ كان يعتقد أنَّها فورة صغيرة سيخمدها رجال السُّلطة ببطشهم كما هو ديدنهم، ولكن ما كان يفكر به وجده مخالفاً للواقع، فكرة الثَّلج بدأت تكبر وتتدحرج لتردم من ظلموا الشَّعب وسرقوه وأكلوا لحومه ولم يشبعوا إلى الآن، فما كان من أبي خالد إلَّا أن شدّد الرِّقابة على ولديه خالد وعمر، فهما ما يزالان صغيرين على الموت والسِّجن والتَّعذيب، وأغلق أبواب بيته ونوافذه خشيةً من تسلّل الثَّورة إليه ؛ فيحدث ما لا يحمد عقباه، فقد خَبر النِّظام وشراسته، بَيْدَ أنَّه لم يكن يعلم أنَّ الأقدار إذا وقعت فلن يدرأها الحرص، فزوج ابنته عائشة كان من أوائل من رفض حكم الأقلية، ورفض الظُّلم وقالها علانية: إنَّه انحاز إلى الأغلبية المظلومة، وطالب كما طالب العديد من أهل الغوطة وسوريا بإسقاط الطَّاغية، خالد ذو الخامسة عشرة من العمر كان يراقب المشهد عن كثب، وكان يحاكم الأشياء بعاطفة الشَّاب الصَّغير لكنْ بعقل واعٍ، فعرف أنّ عليه الوقوف مع حراك الشَّعب والانحياز الكامل لمطالبه المحقَّة، فكان يجالس زوج أخته ورفاقه كثيراً ؛ حتَّى صار على صغر سنه أحد الثَّائرين الموثوق بهم

أشهر وسنوات قليلة من الحراك المستدام، ومع تحوِّل الثَّورة من سِلميّة إلى مسلحة، فالنَّظام رفض مطالب الأغلبية وتمسّك بالحلِّ الأمني والتَّقتيل وخطف النَّاشطين وسجنهم، ورفض كلّ محاولات الشَّعب بالتَّحرر بالطُّرق السِّلمية، ممَّا جعل الأمور تنفلت ويختلط الحابل بالنّابل، ويُدخل نظامَ النُّصيرية ومن يقف معه من الأنظمة العربية والنِّظام العالمي سورية في دوّامة عنف تأكل الأخضر واليابس، لا تبقي ولا تذر

أبو خالد على الرَّغم من وجود الحواجز الأمنية إلَّا أنَّه كان يذهب إلى دمشق ويجلب البَّضائع كأنَّ شيئاً لم يكن، فهو متأكد أنَّه غير متّهم وغير مشارك بالمظاهرات الرَّافضة لحكم النُّصيرية، وهذا ما أدخل الطَّمأنينة إلى قلبه وفي جلسة عائلية حضرها زوج عائشة وأبو خالد قال عثمان: هل سمعت يا عمّي ما صرَّح به اليوم رامي مخلوف ابن خال الرَّئيس ومخزنهم الاقتصادي ومدير أعمالهم التُّجاري والمتصرِّف بكلِّ المشاريع الاقتصادية التَّابعة للدولة لجريدة نيويورك تايمز الأمريكية؟

لا – والله – لم أسمع، وليس لي رغبة في السَّماع، فأنا خارج هذه الأحداث، ولا أريد لأحد من عائلتي أن يصاب بأدنى ضرر

سأقول لك ما صرح به من باب المعرفة ؛ قال: إن النِّظام السُّوري لن يستسلم وسيقاتل إلى النِّهاية، ولن يكون هناك استقرار في إسرائيل إذا لم يكن هناك استقرار في سوريا، وإن السَّلفيين الإسلاميين هم بدلاء النِّظام العلماني، بمعنى أنَّه يُخوِّف العالم من الثّورة والثُّوار، ويبعث برسالة إلى إسرائيل مفادها: أنَّنا نحن الوحيدون من نحمي حدودك وكيانك الغاصب المحتل، وأنَّ الممانعة المزعومة هي مجرد أحاديث نطلقها عبر الإعلام لنغطي عمالتنا وخيانتنا، وأنَّ الصُّمود والتَّصدي للإمبريالية العالميّة مجرد نُكات سمجة نخدع بها الشَّعب، وندغدغ بها قلوب المغفلين وعقولهم ومن قال: إنَّ هناك حرباً أو من يريدها بالأصل؟ ردَّ خالد.

استدار إليه أبوه قائلاً بلهجة حادّة: الله يرضى عنك، لا تتدخل بمواضيع لا تهمك، وليس لك أيَّة علاقة بما يحصل على الأرض، عليك أن تهتمَّ بدراستك وتترك هذه الأمور للكبار، أمّا أنت يا عثمان، فابتعد عن هذه الأفكار والأقوال، واهتم بعملك فلا نريد أن يُسجَّل في قوائم الأمن أنَّنا عارضنا النَّظام ؛ فهؤلاء الجماعة لا رحمة في قلوبهم ولا شفقة

في يوم حزين متلبّد بغيوم الكره والظُّلم والتَّجبر أوقف عناصر حاجز النِّظام المتموضعين بين عربين ودمشق أبا خالد وأمروه بالنُّزول من السَّيارة
خير يا شباب! أنا أبو خالد تاجر المواد الغذائية أمرُّ كلّ بضعة أيام من أمامكم، وليس لي أيّة مشكلة مع الدَّولة، ولست رافضاً لحكم سيادة الرَّئيس

(إي انزل قرد ولو) أيها الحقير ألا يكفي أنَّ اسمك أبو خالد؟
وما بال خالد! فأنا أكنّى باسم خالد بن الوليد قائد جيش الإسلام والمسلمين الَّذي فتح الشّام والعراق وفارس

أيها السَّاقط، ألا تخجل من هذا الخالد الَّذي انقض على أعظم إمبراطورية، وأخمد نارها ونشر دين الإرهاب والقتل والرُّعب قال الضَّابط النُّصيري مستهجناً؟
أتقصد دين الإسلام سأل أبو خالد مستغرباً؟

أجل دين الإسلام أيها الإرهابي الوقح (لك هنت أبتفهم) أنكم ودينكم تحتاجون إلى حرق
ولكني لم أفعل أيّ خطأ يا سيِّادة الضَّابط ؛ فلِمَ تكلمني بهذه اللهجة؟ودِيننا دين الرَّحمة والمرحمة
إي تعال لأريك الرَّحمة على أصولها، لم تر بعد كيف سأعاملك! ألا يكفيك – أيها المكنّى بأبي خالد – أنَّ ابنك يشارك من يُسمّون أنفسهم ثوّاراً،

ويحـرّض على سـيادة الرَّئيـس في المظاهـرات ويقـود جماعـة مسـلّحة أنت مخطئ يا سيَّادة الضَّابط، فابني ما زال صغيراً لمّا يغادر حضننا بعد.

أتظـنُّ أنَّنـا غافلـون عنكـم أيهـا الأوبـاش! ليكـن في علمـك بأنَّنـا نعـرف مـا تفعلـون في غـرف نومكـم، فابنـك وزوج ابنتـك عائشـة همـا رأس الفتنـة في مدينـة عربيـن، ومـن يسـمّي ابنتـه عائشـة فمـن الطَّبيعـي أن يكـون لهـا زوج إرهابـي واسـمه عثمـان أيـضاً، يعنـي أنكـم - أيَّهـا الحثالـة - لـبُّ المشـكلة وأسُّ الصِّـراع المذهبـي، وأنكـم - أيهـا الأوغـاد - كارهـون لحكـم سـيادة الرَّئيـس المفـدّى، واسـتدار إلـى عناصـره صـارخاً: خـذوا هـذا الكلـب المناهـض لولايـة علـيٍّ، الـكاره للتعايـش السِّـلمي بيـن المذاهـب الرَّافـض لتقـارب الأديـان والحاقد على الأقليـة النُّصيريـة المظلومـة

حماة الدِّيار

مضت الأيام ثقيلة على عائلة أبي خالد دون أن يسمعوا أيّ خبر عن أبيهم رغم محاولاتهم الحثيثة لمعرفة مصيره، بعد أن انتشرت أخبار اعتقاله على الحاجز الرَّئيس من قبل زبانية الطُّغمة الحاكمة المستبدّة
أمُّ خالد لم تسكت وحاولت أن تستطلع وتبحث عن وساطة توصلها لزوجها المعتقل، وكما هي العادة كان هناك بعض الوسطاء بين المتسلطين من أجهزة الأمن الَّذين يعتبرون اعتقال النَّاس وإخفائهم كموسم سياحي في جزيرة رائعة الجمال يدرُّ عليهم أرباحًا خيالية دونما تعب، فلكلِّ حادثة سعر ولكلِّ شخصية معتقلة سعر أيضاً، توصّلت أمّ خالد إلى أحد المعارف الَّذي أكد لها أنَّ زوجها في فرع الأمن العسكري بدمشق وأنَّ سيادة العميد يطلب خمسة آلاف دولار لقاء الإفراج عنه

وقد نصحها زوج ابنتها بعدم الانصياع لهؤلاء اللقطاء حراس أمن الرَّئيس وزمرته البّاغية ولكنها لم تلتفت إليه ولم تسمع كلامه
صباحاً ذهبت إلى مهدي ابن صديقتها الَّذي نقل لها الخبر وما إن رأته حتَّى قالت مستعطفة إياه

أتوسل إليك يا بُنَيّ أن تسرع بإجراءات مقابلة زوجي والله العظيم ليس له علاقة بالثَّورة أو الثُّوار
أعرف يا خالة ويعرف كلّ من في أجهزة الأمن.
إذاً لماذا اعتُقِل؟ ولمَ رموه في زنزانة لا يرى الشَّمس ولا يتنفس الهواء فيها.

إنَّه ابنك خالد ؛ هو من سبب لأبيه هذه الأذيّة الَّتي قد تودي بحياته.
وما ذنب زوجي إن كان ابني طائشاً لا يعرف مصلحته! وما ذنبي أن أخسر

زوجـي إذا كان ابنـي خـارجاً عـن القانـون! ألـم يسـمعوا قـول الحـقّ: { ولا تـزر وازرة وزر أخـرى }؟

تبسَّـم مهـدي قـائلاً: بالطبـع لم يسـمعوا ولا يريـدوا أن يسـمعوا، أتظنيـن أنَّ كلّ المجتمـع مثلـك يحفـظ القـرآن أو يؤمـن بوجـود اللـه! وخاصَّـة مـن يقـود أجهـزة أمـن بلادنـا، واللـه يـا خالـة لـولا معرفتـي الوثيقـة بكـم لما تدخَّلـت في هـذا الأمـر، ولا وضعـت يـدي في هـذه القصـة الَّتـي قـد تتسـبب بإحراقـي إن حصـل خطـأ مقصـود أو غيـر مقصـود ؛ قالهـا والمكـر والخـداع يقطـران مـن وجهـه

أتوسـل إليـك أرجـوك ألَّا تتركنـي في هـذه المحنـة ولـن أنسـى صنيعـك هـذا أبـداً
لـن أدعـك بمفـردك في هـذا الوقـت العصيـب، سـنرجع معـاً وبيدنـا أبـو خالـد فهـذا وعـد، ووعـد الحـرِّ ديـنُ

حسنُ ؛ ماتفاصيل الاتِّفاق؟

خمسة آلاف دولار يتسلمهم العميد من يدك، وتتسلّمين زوجك باليد الأخرى.
ومالضّمان لهذه العمليّة؟
لـن تعطـي المال لأحـد حتَّـى تمسـكي زوجـك بيـدك، وإن لـم يسـلمونا إيـاه نعـد كمـا جئنـا ولـن نخسـر قـرشاً واحـداً
وهل سأذهب وحدي؟
أنا معك ولن أتركك لحظة واحدة.
لـم أقصـد ذلـك، أعـرف أنـك سـتكون معـي وبجانبـي ولكنـي أريـد أن أصطحـب ابنـي
وقـف لحظـات وقـد ظهـرت الدَّهشـة على وجهـه، وتابـع: يمكـن لـك أن تصطحبـي خالـداً وزوج ابنتـك أيـضاً وبذلـك تقدميـن للسـيَّد العميـد أكبـر خدمة في حياتـه

لا لا فهمتني خطأ، أريد أن أصطحب ابني عمر فهو صغير البنية، وقد يرقُّ قلب العميد له فيعرف أنَّ لزوجي أطفالاً ينتظرونه

إن كان الأمر بهذا الشَّكل فمن المستحسن أن نذهب غداً صباحاً، ولكن انتبهي، لا أريد لأحد أن يعرف من أوصلك إلى الأمن ؛ فأنا لا أريد لسمعتي أن تلكوها الألسن، ويعرف القاصي والدَّاني أنَّ لي صلة بهم، وإن وصل الخبر للثوار فأنت تعرفين ما سيجري لي، أرجوك ألَّا تخبري أحداً بما دار بيننا، لقاؤنا غداً في العاشرة صباحاً مقابل الشَّارع العام

بعد أن جهزت المال (زوجها مقتدر وقد ترك مالاً وفيراً) اصطحبت ابنها، وكما هو متّفق عليه التقت بمهدي وركبا في سيارته وانطلقوا إلى دمشق بسهولة، فالعناصر الَّتي كانت تقف على الحاجز عرفت مهدي وفتحت له الطَّريق بلا تردد

دخلوا فرع الأمن العسكري بعد أن مرّوا على نقاط تفتيش عديدة وطلب مهدي مقابلة العميد
بعد أن دخلوا إلى مكتبه قال مهدي: سيِّدي كما أمرتني، هذه زوجة الإرهابي أبي خالد وقد أحضرتها لترى زوجها
ومن قال لك أيها الغبي: إن زوجها يريد أن يراها! أنا قلت لك: أحضرها ومالها ولم أعطك أيّ وعد
كما تشاء يا سيِّدي، فأنا تحت أمرك.
اِستدار العميد إلى أمِّ خالد سائلاً: لم أتيت بهذا الصَّغير؟
لأتونس به، وأتوسل إليك لتطلق سراح زوجي.
ولماذا لمْ تأتني بابنك خالد؟ أو حتَّى زوج ابنتك الإرهابي الكبير؟
والله يا سيَّادة العميد ليس لي عليهم سلطان ؛ فهم كبار ويعرفون ما يفعلون، وإن أنتم أمسكتم بهما فلكم أن تحاكموهما وتسجنوهما كما تشاؤون

مـاذا! نحاكمهمـا أيتهـا النَّاقصـة العقـل؟ قسـما بالإمـام علـيٍّ إن أمسـكتهما لأذوِّبـنّ جسـديهما بالأسـيد بعـد أن أقطعـه مئـات القطـع، فأنتـم خنازيـر وأوبئـة لا يحـقُّ لكـم الحيـاة، وهـذه الـبلاد لا تسـع لنـا ولكـم فإمّـا نحـن وإمّـا أنتـم، وسـنريكم مـن نحـن يـا بائعـي الوطـن ويـا ناكـري الجميـل والمعـروف، أعطنـي مـا تحملـين مـن نقـود
ولكننا لم نتفق بعد يا سيَّادة العميد!
على ماذا سنتفق؟
على إطلاق سراح زوجي.

يا لك من امرأة مسكينة خرفة يكفي أنَّ اسمك أمّ خالد الخائن لولاية عليٍّ.
ثـمَّ قـرع الجـرس فدخـل حـارس ضخـم البنية فقـال لـه: خذ هـذه العاهـرة، وانزع عنهـا ملابسـها كيـوم ولدتهـا أمهـا ؛ أريـد مـن كلِّ عناصـر الفـرع أن يغتصبوهـا، وخـذ معـك هـذا الصَّغيـر واغتصبـوه أيـضاً، ولكـن أرجعـوه إلـيَّ، أمّـا هـذه العاهـرة فلا أريـد أن أراهـا ثانيـة، ولـو كانـت صغيـرة وجميلـة كنـت أوَّل مـن سـأغتصبها

صرخـتْ وعلا صوتهـا، وتوسّـلتْ وترجّـت وسـألته باللـه وبالرِّسـل وبـكلّ مـا يعتقد وكان كلَّمـا سـمع كلمـة الـرَّبّ سـبه وشـتمه (والعيـاذ باللـه مـن كفـر هـذه الفئـة الكافـرة الضَّالة)

جـرَّ العنصـر أمَّ خالـد وقـد خـارت قواهـا ودخلـت في نوبـة عصبيـة، وبعـد سـاعات مـن تعاقـب عناصـر الفـرع عليهـا صـارت كخرقـة باليـة لا يرتجـى منهـا أيّـة فائـدة، أخـرج الحـارس حربتـه وبقـر بطنهـا أمـام ابنهـا ؛ فخـرت أمعاؤهـا على الأرض، وفاضـت روحهـا بعـد أن ذاقـت الـويلات والـذّل على أيـدي حمـاة الوطـن
لم ولن ينسَ عمر الصَّغير ما حلَّ به وبأمِّه من اغتصاب وتعذيب.

أمـا مهـدي فقـد طلـب مـن العميـد السَّـماح لـه بالنَّـوم في الفـرع لأنَّـه لـن يسـتطيع الدُّخـول إلـى بلدتـه بعـد هـذه الحادثـة، فوافـق العميـد، وأمـر برمـي عمـر عنـد مدخـل مدينـة عربيـن ليرهـب الثَّـوار ويوقنـوا أنهـم يجابهـون قـوة لا تتـورّع عـن ارتـكاب أيَّـة جريمـة مهمـا كانـت فظاعتهـا

كيماوي الغوطة

انتشر خبر الولد الملقى على قارعة الطَّريق، فتعرَّف عليه بعض المارة وحملوه وهو في حالة يرثى لها إلى بيته الذَّي خلا من الأبوين، وما إن رآه خالد بهذه الحالة المزربة حتَّى طلب من صديقيه حاتم وبراء الإغارة على حاجز المدينة، فقتلوا من قتلوا وجرحوا العديد منهم، ولكن هذا لن يرجع شرف خالد الَّذي دنّسه هؤلاء الوحوش، ولن يعيد أمَّه الَّتي مثَّلت بها مليشيات أسد أبشع تمثِيل، وفي ردٍّ على هذا الهجوم قامت طائرات الجيش الباسل كما يحلو لمؤيدي الطَّاغية تسميته زوراً وبهتاناً فلا هو بباسل ولا هو أصلاً بجيش، فلا يعدو كونه أكثر من عصابات (مافيا) تحمي رئيسها وتقتل الشعب وتسلبه، لإضفاء صفة الشَّجاعة عليه والتذكير بباسل أسد الَّذي مات في حادث سيِّارة عندما كان يودِّع أخاه إلى المطار، وكان هذا الشَّهيد الَّذي حدَّ الشَّعب أعواماً طويلة خوفاً لا حزناً عليه، وكانت ذكراه لا تنقطع عن الأرض السُّورية فسميت الحدائق والصَّالات الرِّياضية والمشافي والشَّوارع الفخمة إن وجدت باسمه تكريماً لأعماله الرَّائدة في الوطن، وهو لا يعدو عن كونه ابن رئيس فاسد ظالم قاتل حكم البلد بالحديد والنَّار وقد كان المقبور ينوي توريثه الحكم (الجمهوري) بعده، وهذا الشَّهيد المزعوم لقي مصرعه وهو في حالة سكر شديدة، ولكن علماء السُّلطة ومشايخها ومنهم الشَّهير البوطي أقسم بالله إنَّه يراه في الجنة مع الأنبياء والصَّالحين، وأقسم: إنه لعلى ثقة من عدل ربَّه، ولاجرم أن الله سيجمع البوطي وباسلاً وذويه ومن يلوذ بهم مع فرعون في قعر جهنم وبعد هذا الحادث تداعى أهل عربين ليتفقَّدوا الأضرار ويحصوا القتلى الَّذين نحسبهم شهداء عند ربَّهم يرزقون، فكان العدد خمسة قتلى واثني عشر جريحاً

استمرت المظاهرات والعمليات العسكرية على امتداد الوطن فلا النِّظام رقّ

قلبه لآهات الشَّعب أو استمع لمطالبه، ولا الشَّعب قادر على نسيان مانُكب به من قتل وترويع وتدمير بيوته، حتَّى إن النِّظام بدأ يستعمل وسيلة غاية في الإجرام والخطورة والدَّناءة وهي قصف الأحياء السَّكنية بالبراميل المتفجرة، الَّتي ليس لها هدف إلَّا قتل أكبر عدد ممكن من الآمنين العزّل، لتضغط الحاضنة الشعبية على الثُّوار فيستسلموا ويرضوا بالواقع ويرجعوا إلى حظيرة أسد غنماً مطواعة، ويسلموا رقابهم من جديد حتَّى تنحر بسبب ودون سبب، وبعد تدخُّل جامعة العرب الميمون وطرد ممثل أسد من جامعتها دُوِّلت قضية سوريا وصارت بأيدي كبرى دول العالم الَّتي وجدتها فرصة لتزداد عبثاً بهذه المنطقة المهمة والخطرة على أمنه وأمن الكيان الصُّهيوني

وبمرور الوقت بدأت قوى النِّظام تضعف والثَّغرات تظهر في صفوفه وقادته، ففي 18/تموز/2012م رنَّ هاتف خالد فإذا المتحدِّث صديقه براء وقد كان صوته ينبئ بالفرح والبُشرى وهو يسأل: ألم تسمع الأخبار الجديدة؟
لا كنت نائماً وقد استيقظت على رنين الهاتف.
افتح التّلفاز وسترى ما يسعدك.
أسرع خالد إلى جهازه وفتحه فإذا به يرى خبراً أدخل البَّهجة إلى قلبه فقد تمَّ تفخيخ مكان يُسمّى بخلية الأزمة وتفجيره وقتل وإصابة من فيه، وهم من كبار مسؤولي الدَّولة، فداود راجحة كان وزير الدِّفاع، وقد قتل هو ونائبه آصف شوكت زوج ابنة الرَّئيس المقبوح بشرى، وقُتل أيضاً رئيس خلية الأزمة حسن تركماني، ورئيس الأمن القومي في حزب البعث هشام بختيار، وأصيب وزير الدَّاخلية محمد الشَّعار
بقي ساعات طويلة يراقب هو وصهره الَّذي جاءه ساعة سماعه أنباء القنوات المختلفة الَّتي تبث مباشرة وتتحدَّث عن هذه العمليّة المفصليّة في حياة الثَّورة السَّورية

أتعتقد أنَّ الثُّوار هم من فجروا خلية الأزمة يا عثمان سأل خالد؟

لا أعتقد، فلا يمكن لأحد الاقتراب من هذا المقرّ على بعد عشرات الأمتار فكيف له أن يُدخل هذا الكمَّ من المتفجّرات ويزرعها أيضاً في مكان مسوَّر! لو حاولت الطُّيور الدُّخول إليه لما استطاعت

من برأيك إذاً فجّر وقتل هؤلاء القادة المهمّين لتثبيت النَّظام؟

هؤلاء مجرمون قتلة لايتورّعون عن التَّضحية بأيّة شخصيَّة ليستمرّوا بالحكم، ولا أظنُّ إلَّا أنها تصفية حسابات قديمة وجديدة، ألا تعلم أنَّ ماهراً شقيق رئيس العصابة بشار عندما أراد آصف الزَّواج بأخته - وكان ماهر رافضاً - أطلق على آصف الرَّصاص وأصاب قدمه؟ وقد تزوَّجت بآصف رغماً عنه وعن أبيه الرَّئيس آنذاك، والله أعلم ما الَّذي حصل بينهم، النِّظام الآن يتصدّع ويتفكّك فضربات الثّوار أوهنته، وسيأكل بعضه بعضاً إن شاء الله، وعلى كلْ الأحوال مقتلهم مكسبٌ للثورة ؛ إن كان الثُّوار من فعلها فشكراً لهم، وإن كان أعضاء العصابة يُصفّون بعضهم فلا رحمهم الله، وإن شاء الله يلحق الحبل بالدّلو

استمرت المجازر على الأرض السَّورية، واستمر النِّظام بقصف الأحياء السَّكنية في كلِّ البلاد محاولاً كسر إرادة الشَّعب دون أيّ تراجع من أصحاب الحقِّ، على الرَّغم من الوحشية المفرطة الَّتي أظهرتها الطَّائفة العفنة وموالوها اليوم صباحاً في 2013/8/21 هناك أمرٌ غير اعتيادي جعل خالداً يهرع إلى بيت أخته زوجة عثمان ويقرع الباب بعنف فأيقظ صهره من النَّوم مفزوعاً خير ما بك يا خالد قد روّعتني؟

قد ضربنا النِّظام الأسدي بصواريخ محملة بغاز السَّارين وضرب غوطة دمشق الغربية والشَّرقية والقتلى المختنقين من آثاره بالمئات

الله أكبر ومن أوصل الخبر إليك؟ لم أشعر بشيء وما سمعنا إلَّا صوت قصف

القتلى تملأ الشَّوارع في عين ترما والمعضمية وفي أحيائنا وزملكا أيضاً، والثُّوار مستنفرون ولا نعلم ما علينا فعله ؛ وقد نقلت الخبر كثير من القنوات الإخبارية، حتَّى إني اتصلت بصديقي عبد الرّحمن في زملكا وأكد لي أنهم قُصفوا كما قُصفنا

هـذا يعنـي أنَّ النِّظـام كتـب نهايتـه بيديـه فلا يمكـن للعالـم الحـرّ أن يسـكت عـن هـذه المجـزرة الرَّهيبـة بحـقِّ الأبريـاء
اِرتـدِ ملابسـك ودعنـا نلتحـق بالمجتمعيـن في غرفـة قيـادة الثَّـورة بالمدينـة، ونحـاول مسـاعدة مَـن في المشـفى وفي الطُّرقـات
وصلا مـكان الاجتمـاع وكان اللغـط والجلبـة على أشـدّهما، كلٌّ يتابـع المشـاهد الصَّادمـة في مناطـق الغوطـة المتضـررة ؛ فمئـات الأطفـال المحتضـرون يموتون تدريجـياً! والمشـافي في هـذه المناطـق امـتلأت عـن بكـرة أبيهـا بالجثـث، ولـم يعـد هنـاك أسِـرَّة تكفـي، ورائحـة المـوت تفشّـت في غوطـة دمشـق الخضـراء الَّتـي كانـت مرتـعاً لـكلِّ محـب وعاشـق للحيـاة
أقسـم المجتمعـون على الانتقـام مـن نظـام أسـد على مـا ارتكبـه مـن جرائـم فظيعـة ضـد الإنسـانية، وتوقَّـع أغلبهـم أنَّ النِّظـام العالمـي سـيعاقب بشـار وزمرتـه، ويقدّمـه إلـى محكمـة دوليـة ليقتـصّ منـه
ولكنهـم تناسـوا أو نسـوا أن هـذا النِّظـام جـزء مهـم مـن عصابـة دوليـة هدفهـا تركيـع شـعوبنا واسـتعبادها وجعلهـا حميـراً في مزرعـة عملائهـم
خـرج الشَّـباب إلـى شـوارع مدينتهـم لينقـذوا مـن يسـتطيعون إنقـاذه، ولكـن المشـاهد المريعـة كانـت أكبـر مـن الوصـف وأعظـم أن يحتملهـا إنسـان
أخطـأ أهـل الغوطـة بالتَّقديـر، فعندمـا سـمعوا دويّ القصـف بهـذه الغـازات المحرمـة دوليـة، اختبـؤوا في الأدوار السُّـفلية مـن عماراتهـم، ولـم يعلمـوا أن غـاز السَّـارين ثقيـل ولا يصـل إلـى الطَّوابـق العليـا، وبهـذا ازدادت أعـداد مـن نحسـبهم شـهداء قـال خالـد
ردَّ عثمـان: انظـر إلـى هـذا الجانـب هنـاك فتاتـان صغيرتـان فلنحملهمـا إلـى المشـفى
حمـل كلٌّ منهمـا فتـاة وعندمـا وصلـوا لـم يجـدوا إلَّا جهـاز تنفس واحـد، فالمكان مكتـظٌّ بالقتلـى والمرضـى وذويهـم، بُعيـد لحظـات لاحـظ خالـد شـيئاً غريـباً، فالفتـاة الكبيـرة تنـزع جهـاز التَّنفـس عـن فمهـا وتضعـه على فـم أختهـا الصَّغيـرة فسـألها مسـرعاً: لـم تفعلـي هـذا! عليـك أن تتبادلـي استنشـاق الهواء النَّقـي مـع أختـك

أجابتـه: حـرام ؛ أختـي صغيـرة ولـم تـرَ شـيئاً في الحيـاة بعـد، وأنـا أخـاف عليهـا أكثـر مـن نفسـي، وأريدهـا أن تعيـش، حـاول أن يثنيهـا عـن فعلهـا لكنهـا بعـزم الكبـار رفضـت، وتابعـت وضـع الجهـاز على فـم أختهـا، ظـنَّ خالـد أنَّهـا تشـعر بصحـة وتريـد معالجـة أختهـا، مـرَّت دقائـق فـإذا بـروح الفتـاة تفيـض إلـى خالقهـا لترفـرف مـع الملائكـة في جناتـه وتخبـره عـن فظائـع مـا كابدتـه في هـذه الدُّنيـا، وعـن غـدر القريـب قبـل الغريـب

بكـى خالـد وكأنَّـه لـم يفقـد أحـداً قبل اليـوم، بكـى على الفتـاة الكبيـرة، وعلى الصَّغيـرة ويتمهـا وخسـارتها عائلتهـا، بكـى على نفسـه وأمِّـه الشَّـهيدة بـإذن اللـه، وعلى أبيـه وعلى تـراب وطنـه، حـقاً في هـذه اللحظـات شـعر أنَّـه خسـر كلَّ شـيء في الحيـاة وأنَّهـا لا ترغـب بـه أن يعيـش أو أن يستنشـق مـن هوائهـا، وكـم تمنّـى لـو أنَّـه كان مـكان الفتـاة الَّتـي لـم يعـرف لهـا اسـماً، ولكنـه سـمّاها بنفسـه الفتـاة الرَّائعـة! وأقسـم إنَّـه لـن ينسـاها ولـن يتوانـى عـن الثَّـأر لهـا ولـكلِّ مـن قتلهـم هـذا الطَّاغيـة وزبانيتـه، أقسـم أن يبقـى على طريـق الثَّـورة إلـى أن تتحـرر آخـر بقعـة في وطنـه الَّـذي أحبّـه، وتابـع بصـوت أسـمع مـن بجـواره أنَّـه مـاضٍ في ثورتـه إلـى أن يلقـى اللـه أو أن تتطهـر البـلاد مـن دنـس الزُّمـرة الفاحشـة المارقـة، المفتقـرة إلـى كلِّ فضيلـة أو أخلاق حسـنة، ويخلّصهـا مـن سـطوتها وجبروتهـا

خرجـا يبحثـان عـن ناجيـن في أزقـة المدينـة الحزينـة الباكيـة على أهلهـا، دخلا بيـوتاً فوجـدا أنَّ كلَّ مـن فيهـا قـد فـارق الحيـاة، وأحـس خالـد أنَّ أبوابهـا سـتغلق لسـنوات طويلـة فلـم يعـد هنـاك مـن يرثهـا

ما هذه الفظائع يا عثمان سأل خالد!

ردَّ والدُّمـوع تـملأ عينيـه: هـذه دولـة الطَّائفيـة العفنـة، لا تخـال أنَّهـم ينسـون التَّاريـخ وأنَّهـم يقاتلـون لأجـل كرسـي الحكـم فحسـب، إنـه مخطـط بـدأ منـذ أن جـاء الخمينـي مـن فرنسـا إلـى طهـران مُرسلاً مـن النِّظـام العالمـي الَّـذي طـرد شـاه إيـران وبـدأ بثورتـه الإسلاميـة كمـا سـموها، والمجوسـية كمـا نطلـق عليهـا نحـن، فهـم يقتلوننـا لأنَّنـا أهـل الإسلام، ويفتكـون بنـا لأنَّنـا معتنقـو العقيـدة الصَّحيحة

لـم يُتكشـف حجـم الكارثـة الهائـل إلَّا عندمـا أحصـى أهـل الغوطـة ضحاياهـم، فقـد تجـاوز عـدد القتلـى الَّذيـن نحسـبهم شـهداء ألـفاً وأربعمئـة قتيـل، ثلثهم أطفـال لا ذنـب لهـم إلَّا أنهـم اعتقـدوا أنَّ الطُّفولـة لاتطالهـا أيدي الإجـرام، وأنهم محميّـون بقوانيـن وضعهـا البشـر، وأنَّ الأمـان في أحضـان الوطـن، وماعلمـوا أنَّـه لا أمـان ولا عيـش إلَّا في السَّـماء عنـد خالـق لا يظلـم مثقـال ذرّة

اسـتمر النَّظـام العالمـي في محاربـة ثـورة أهـل سـورية بـكلِّ الطُّـرق الممكنـة، وعندمـا رأى أنَّ الجيـش الباسـل (أبـو شـحاطة) كمـا يسـميه السُّـوريون لـم يعـد قـادراً علـى مجابهـة الثُّـوار وأن ربيبهـم أسـد سـاقط لا محالـه، أوعـز إلـى مليشـيا حـزب اللـه بـزَجِّ قواتـه لنصـرة أسـد بذريعـة حمايـة المراقـد الشِّـيعية المزعومـة في المـدن السُّـورية، هكـذا أرادت أو هكـذا أوهمـت منتسـبيها العامـة، الَّذيـن لا يعرفـون مـن الدِّيـن إلَّا اللطـم والبُّـكاء على الحسـين ولـد علـيُ - رضـي اللـه عنـه- سـبط رسـول اللـه - صلـوات اللـه عليـه - الَّـذي قُتـل في كـربلاء على يـدي شـمْر بـن ذي الجوشـن، وكان هـذا الجوشـن ممَّـن والـى علـيّاً ثـمَّ انقلـب على آل البيـت، وأُلصِقـت التُّهمـة بيزيـد بـن معاويـة، ومـن بعـده بأهـل السُّـنة ممَّـن تمسّـكوا برايـة لا إلـه إلا اللـه وبالقـرآن وبحبهـم للصحابـة وآل بيت الرَّسـول، وأوقـد زعمـاء مليشـيات الشِّـيعة للنـار حـرباً، وأشـاعوا بيـن أنصارهـم أنَّ الرَّئيـس أسـد هـو حامـي عـرش الشِّـيعة ضـد أهـل السُّـنة، وهـم أهـل المنطقـة بالأصـل اسـتعرت نـار الحـرب بيـن الفرقـاء، وتلقّـت ميليشـيا حـزب اللـه اللبنانـي صفعات مؤلمـة، ولـم تعـد قـادرة على الاسـتمرار، فأوعـزت دول العالـم ومـن ورائهـا إسـرائيل وحاكمهـا نيتنياهـو إلـى زعيمـة الشِّـيعة المجوسـية في العالـم إيـران بالتَّدخـل السَّـريع وإلَّا فعملاؤهـا وأسـد ومشـروعها التَّوسـعي في المنطقة على شـفير الهاويـة، وبهـذا صـارت تجنِّـد الشِّـيعة الأفغـان والعراقيين ممَّـن غالوا في حـبَّ علـيٍّ وكرهـوا الصَّحابـة وسـبوا زوجـات الرَّسـول -والعيـاذ بالله-ووجـدوا أنَّ هـذا يومهـم المعهـود ليخـرج مهديهـم المنتظـر الَّـذي اختفـى منـذ اثني عشـر قـرناً في غياهـب السِّـرداب كمـا يظنـون ليقتلـوا العـرب والسُّـنة، وينبشـوا قبـور أبـي بكـر وعمـر وعائشـة رضـي اللـه عنهـم، ويخرجوهـم ويقيمـوا عليهـم حـدَّ

الجلد عندما يخرج مهديهم المزعوم، هذا ما سُطِّر في أمّهات كتبهم الَّتي يعتمدون عليها كأكاذيب الكُليني ونعمة الله الجزائري والشِّيرازي وغيرهم من محدثيهم الدَّجالين، وهذا ما يعتقد به غلاة الاثني عشرية

استمرت الفظائع في أهل السُّنة إلى أن بان في الأفق أنَّ إيران وجماعتها سيخسرون الحرب فقد فقدوا أكثر المناطق وبات ظاهراً للعيان أنَّ نهاية الحاكم الظَّالم أسد قد أزفت، وأنَّ الشَّعب سينتصر بحول الله ثمَّ بدماء الثُّوار ودعوات الثُّكالى ولعنة أشلاء الأبرياء

الهروب

بعد أن أيقن خالد أن الأمور لن تنتهي بسرعة، وأنَّ الوضع سيبقى متوتراً ودامياً لأمد طويل، و خاف على أخته وأخيه اللذين يصغرانه بأعوام، فقد شعر أنَّه بات مسؤولاً عنهما بعد رحيل أبويه، فاقترح على أخيه عمر أنَّ الحلَّ الأنسب هو الرَّحيل عن الوطن والالتجاء إلى دول أوروبا، -
لا أريد أن أخسرك وأختك الصغيرة حفصة كما خسرنا أمّك وأباك.
وكيف لي أن أترككم فأنا لا أعرف في الدُّنيا سواكم!
- وكيف لي أن أتحمَّل مسؤولية أختي الصَّغيرة وأنا أغرق بشبر من ماء!
- إن أنتما بقيتما في هذه الدَّيار فقد تقتلان بسبب القصف. لذا أريد أن أرسل أختي الصَّغيرة إلى مكان آمن ؛ فما جرى مع أمك لا يمكن له أن يُنسى
- لا أستطيع السَّفر بمفردي.
- لن تسافر وحدك سيسافر معك ابن عمك شاهر وأخوه شادي.
- عن أيّ طريق سنسافر؟
- قد رتب شاهر الأمور مع مهرّب على علاقة بضابط من الفرقة الرَّابعة.
- أتثق بهم بعد كلَّ ما فعلوه بنا!
- هؤلاء الخنازير لا يهمهم إلَّا المال، وقد اتفقنا معهم على أن يسلَّم مبلغ الثلاثين ألف دولار إلى جهة ثالثة نعطيهم النِّصف الأوَّل عندما تصلان إلى اليونان، والنِّصف الثاني عندما تصلان إلى ألمانيا، وبهذا نضمن ألَّا يمسّكم سوء
- هل سنذهب إلى ألمانيا؟
- نعم، إلى أن يجعل الله لنا مخرجاً وفرجاً من هذه الحالة الَّتي كأنَّها لا نهاية لها
- متى علينا الرَّحيل؟

- بعد غدٍ مساء ستنطلقان، من هنا إلى لبنان، وهناك سيتم تهريبكم بقارب سياحيٍّ إلى جزر اليونان
- وكيف سنمرُّ من أمام ميليشيا حزب الله! والله إن عرفوا أنَّنا من عربين ليجعلُنَّ من لحومنا أسياخ كباب
- لا تقلق، إنّ حزب الله متفق مع ضباط سوريين ؛ فكما يهرّبون المخدرات ويغرقون العالم فيها هم يشتغلون بتهريب النَّاس أيضاً ليغرقوا أوروبا باللاجئين، وتفرغ المنطقة من السُّنة وينشروا مذهب الشِّيعة المنحرف، ويغيّروا التَّركيبة السُّكانية للمنطقة، وهذا كلّه من خلال أجندات تشترك فيها قوى عالمية

- لمَ إذاً تريدني أن أترك أرضي إذا كنت تعرف أنَّ هذا المخطط مُعدُ لنا؟!
لأنَّني لا أريد أن تفنى عائلتنا قاطبة فلا يبقى أحد منها، ألَّا ترى أنَّنا محاصرون منذ سنتين ويُمنع إدخال الطَّعام إلينا! ألَّا تشعر أنَّنا نأكل الحشائش والقطط والكلاب إن وُجِدت! ألَّا تعلم أنَّ العالم تخلّى عنا وعن واجباته الأخلاقية ووقف في صف القاتل المجرم! بل إنَّه يساعده بكلِّ مقدّراته من أسلحة فتاكة وإعلام ودعم خفيّ وظاهر في أروقة الأمم المتحدة، ألا ترى أنَّ الشُّعوب العربية نسيت أنَّ هناك شعباً مضطهداً شقيقاً في سورية يذوق الأمرّين! وقد كان يأمل بهم وبحكامهم خيراً إلَّا أنهم خذلوه، وأثبتوا أنَّ الدَّم العربي ليس بواحد، وأن للعرب آلاف الأمهات والآباء من أجناس مختلفة
- أخي، ليس لكما إلَّا الفرار ؛ فلا مستقبل لكما في هذه البلدة الميتة قبل أهلها، أرجوك ألَّا تنكأ جروحي، اسمع ما أقول ونفّذ، وإن كان لنا عُمْرٌ فسنلتقي، وإن لم يكن فسيجمعنا ربّنا في جنات الفردوس مع أبينا وأمنا ؛ فصبرنا على الفجائع سيكون كفّارة لذنوبنا بإذن الله
- كما تريد يا أخي ؛ فأنت كبيرنا ولن أرفض لك طلباً.
- على بركة الله، جهّزا نفسيكما، فقد كَتب علينا القدر أن نموت في وطننا أو نتشتت في أرجاء المعمورة

مساء الليلة الموعودة انطلق الرَّكب بعد أن ودّعوا أهليهم وعبروا الحواجز الأمنية بسهولة ويسر، فقد كان مرافقهم مُرسلاً من ضابط معروف لدى مسؤولي الحواجز، عبروا دمشق المحتلة إلى الحدود اللبنانية من نقطة المصنَّع، وهي النُّقطة الفاصلة بين البلدين، دخلوا لبنان ثمَّ مرفأ بيروت دون أصغر مشكلة، وكأنَّما طويت الأرض لهم، أو كأنَّما حزب الله مالك الدَّولة مع ناسها وشوارعها وجيشها وأمنها. لم يكن هناك مشكلة في بيروت فالأمر كان مدبّراً والوضع مرتباً، أيام أمضوها في بيت يأوي كثيراً ممَّن يحاولون الفرار، وممَّا شدَّ انتباه خالد أن هناك أسرة ذات بشرة سوداء اعتقد أنَّها أفريقية، إذاً هذه المنطقة من العالم هي نقطة غير شرعية للهجرة ولأعمال القرصنة والتَّهريب، وهذا كلّه أمام أنظار العالم
هل صار حزب الله قوة إقليمية تستطيع الوقوف بوجه العالم! وتفرض رغباتها وأعمالها الشَّيطانية على العالم همس خالد في أذن ابن عمه شاهر
تبسَّم شاهر فهو أكبر سنّاً منه، ويعرف ما لا يعرفه هذا الشَّاب الغرّ قائلاً: طبعاً العالم بأجمعه يعرف ما يفعله حزب الله من بلطجة وتهريب للبشر والمخدرات ولكنه يغضّ البصر عنه لأمور عديدة منها: أنَّه خطٌّ متقدِّم بمواجهة الإسلام، وخط متقدُّم لحماية حدود اسرائيل من الجنوب، فالشَّيعة والصَّهاينة أولاد عمّ إن لم نقل: إنهم إخوة، وأرجوك - يا عمر - ألَّا تطرح مثل هذه الأسئلة ما دمنا على أرض لبنان، فنظامها لا يختلف عن نظام أسد فكلّهم مجرمون سفّاحون متآزرون ضدنا، وهدفهم واحد وطريقتهم واحدة، دعنا نخرج من هنا بسلام، ثمَّ استفسر كما يحلو لك صباحاً أخبرهم المهرِّب أنَّ عليهم الاستعداد مساءً للرحيل، قالت حفصة لعمر: أنا خائفة يا أخي فأنا لم أركب البحر طيلة عمري، ولا أعرف السِّباحة فلا تتركني إذا هاج البحر وعلا الموج

لا تخافي يا أختي، فلن أدع الهواء يمسّك، روحي فداؤك، أنت أختي من رائحة أمّي المغدورة الَّتي اغتصبها أولاد الخنازير وبقروا بطنها أمامي، لو

تعلميـن كـم أقاسـي في حياتـي! منـذ أن رمونـي على حـدود مدينتنـا وعينـاي لـم تذوقـا طعـم النَّـوم الهنـيء، أنـا أراهـم في أحلامـي وحتَّـى في يقظتـي ؛ أتخيلهـم كيفمـا تلفّـتّ، لا أعلـم متـى سأنسـى أو أتناسـى هـذه المرحلـة مـن حياتـي الَّتـي جعلـت منـي إنسـاناً بلا روح! لـو تعلميـن كـم أودُّ الانتقـام ممَّـن جعلـوا حياتنـا جحيـماً! ولكـن الآن ليـس باليَّـد حيلـة ؛ عسـى أن يأتـي الوقـت الَّـذي أشـفي فيـه غليلـي وأردُّ الصَّـاع صاعيـن لهـؤلاء الأنـذال

علينـا الاسـتعداد للسـفر وعليـكِ أن ترتاحـي ؛ فأمامنـا سـاعات عصيبـة في بحـر لاصديـق له

مقابر جماعية

فرغ البيت على خالد فلم يبقَ إلَّا هو بعد أن رحل عمر وحفصة عن الدِّيار، وقد شعر أنَّ هجرتهم بلا رجعة، فما يجري من أحداث على الأرض السُّورية تنبئ أنَّ الأقسى والأبشع قادم لا محالة
ظهيرة اليوم كان خالد يقف مع رفاقه على حاجز الثُّوار المشكَّل عند مدخل بلدته، فإذا بهم يشاهدون رجلاً يجرى باتجاههم والدِّماء تسيل منه، في البداية استعدوا خشية أن يكون كميناً أو خديعة من النِّظام، ولكن عندما اقترب الرَّجل عرفوه ؛ فهذا عمران جار خالد في الحي، أسرعوا إليه وحملوه بعد أن كادت قواه تخور

نقلوه إلى مشفى المدينة، وهناك قصَّ عليهم ما جرى معه ولِمَ كانت الدِّماء تغطي جسده، فقال: منذ ثلاثة أسابيع حاولت أنا ومجموعة من الشَّباب العودة إلى عربين، وكما تعرفون أنَّ الطَّرق الرَّئيسة مغلقة فقررنا الدُّخول من خلال البَّساتين، لم نكد نصل إلى مشارف المدينة حتَّى انقض علينا جنود أسد واقتادونا إلى القطعة العسكرية المحاذية للشارع العام، وهناك أذاقونا العذاب الشَّديد حتَّى ظننت أنَّ الشَّمس لن تبزغ علينا، كنا خمسة أشخاص، في الصَّباح أخذونا إلى مقربة من بيوت الضُّباط وهناك رأيت حفراً كبيرة لمّا تردم بعد على جثامين الموتى المكدّسة فيها، قال لنا الضَّابط: طالما تستطيعون حفر القبور فإن حياتكم محفوظة، وعندما تتباطؤون فأقرب قبر من هذه الحفر سيكون نصيبكم
تابعنا حفر القبور لمدة عشرة أيام لا نأكل إلَّا القليل من الطَّعام، ولا ننام إلَّا ساعتين أو ثلاثة في اليوم
أبو حاتم تعرفونه جميعكم، فهو من مدينتنا، أصيبت قدمه عندما كانت يحفر، والتهبت ولم يُقدَّم له أيّة إسعافات، إنما طُلب منه متابعة الحفر،

فالجثث الآتية تكاد لا تعد ولا تحصى وكلّها لأشخاص أُعدموا ميدانياً، لم يستطع أبو حاتم مواصلة الحفر، فأخرج الضَّابط حيدرة مسدسه وأطلق رصاصة على رأسه فأردته قتيلاً، ثمَّ بصق عليه وسبّ أمهاتنا و زوجات الرَّسول وأصحابه، وقال: إنَّ نهايتنا مثل هذا الكلب إن لم نتابع الحفر، بقينا أربعة أشخاص مقيدين معاً بسلسلة طولها متران ؛ وتابع عمران وفي صوته بحّة مظلوم وحقد مغدور وتوعُّدُ بالانتقام قائلاً: عرفت أنَّهم سيقتلوننا عاجلاً أم آجلاً، فما نراه من جثث أطفال ونساء وشيوخ أكبر دليل على أنَّ هؤلاء القوم لا يخافون الله، ولا يحسبون حساباً للآخرة، وأنَّ الضّوء الأخضر بالقتل وارتكاب الفظائع والمجازر قد أعطي لهم من جهات داخلية وخارجية

وسكت قليلاً ليلملم أشتات ذاكرته الَّتي على ما يبدو قد خانته ؛ فما حصل معه يجعل الولدان شيباً، ثمَّ أردف: قلت لمحمود ونافع وعليٍّ رفاقي في الأسر، إن علينا الهروب، فجاوبني محمود ساخراً: وأين ستهرب يا مسكين؟ فالبحر من أمامك والعدو من ورائك! ألا ترى شدَّة الحراسة! ألم تعلم أنَّ هؤلاء القوم لايرعون لله ذمة ويدمنون على سفك الدِّماء! ألا ترى الجثث الملقية في القبور الجماعية! أتريد أن تكون واحداً منهم؟
أجبته بأنّا إذا لم نتحرك فمصيرنا كمصير أبي حاتم مهما طال الوقت، وبعد أيام ستنفذ طاقتنا ولن نستطيع الحفر وسيطلقون علينا الرَّصاص كحصان كُسرت ساقاه

وافقني عليٌّ ونافع أما محمود فأصرّ على موقفه، وفي غفلة من الحارس بدل من أن نضرب الأرض لنحفر بدأنا نضرب السَّلاسل حتَّى قطعت، وعندما أحسسنا أنَّ الوقت حان، وأنَّ عناصر الجيش الباسل غافلون عنا أطلقنا سيقاننا للريح وفررنا قاصدين الوصول إليكم، وما إن شعر الجنود بمحاولة فرارنا حتَّى أطلقوا علينا نار أسلحتهم وحقدهم، فسقط عليٌّ ونافع صرعى بجانبي وأصبت أنا بيدي وظهري، لكني استطعت الوصول

إلـى مـكان حاجزكـم، وهربـت مـن بطـش حمـاة الدِّيـار، وأنـا الآن بينكـم قـد كتـب اللـه لـي عمـراً جديـداً

باركـوا جميعهـم وصولـه بالسَّلامـة، وخـرج خالـد وعثمـان زوج أختـه بعـد أن اطمأنـا على عمـران وقـد امـتلأ قلباهمـا حنـقاً وغضـباً مـن هـؤلاء الحثـالات الهاربيـن مـن مزابـل التَّاريـخ، وقـد سـقط القنـاع عنهـم وبانـت سـوءاتهم

ركوب البحر

حان موعد الرَّحيل مساء، واستعد الرَّكب للانطلاق، حُمِّلوا بسيارات وحشروا كدواب الحقل فيها، وقد تفاجأ عمر من العدد الكبير الَّذي حُشر بسيارة واحدة ، وصلوا مرفأ بيروت، وكم ازدادت دهشة عمر عندما شاهد مئات النِّساء والأطفال والرِّجال يصعدون إلى المركب القديم! فسأل شادي: هل هذا الشَّيء سيوصلنا إلى اليونان؟

نعم، وليس لنا خيار آخر وأرجوك ألَّا تكثر من الأسئلة فهؤلاء المهربون مجرمون وقتلة، ولا نريد أن نستفز أحداً منهم، فليكن هدفنا الفرار فحسب
قالت حفصة: كم أنا خائفة! أشعر بجسدي يرتجف فالرُّعب سيطر عليَّ ؛ أرجوكم يا أخي ويابنَي عمّي ألّا تتخلوا عني ؛ فالبحر مخيف وهذا القارب أكثر إخافة
ألم أقل لك: إنَّنا معك فلا تخافي، أمسكي بيدي لاتتركيها مهما حصل، والأمور ستجري على أحسن مايكون
ولكن الظَّلام دامس والأمواج مرعبة ؛ أريد العودة إلى عربين فالموت تحت أبنيتها المقصوفة أرحم من الموت بين هذه الأمواج الَّتي تبدو كأشباح فاتحة أفواهها تنتظر اللحظة المناسبة لابتلاعنا
قال شادي: سنكون معك كلُّنا، نحن بجانبك، ثمَّ ألا ترين الازدحام الشَّديد على ظهر المركب فقد حشرونا متلاصقين كأنَّنا سمك في علب سردين، حتَّى إنّي عاجز عن تحريك ساقيّ
وكانت سيارات المهربين ماتزال تأتي تباعاً ويحشر النَّاس حتَّى ضاقت الأنفاس
شاهد عمر مسلحين بجانب القارب يستقبلون السَّيارات ويكدّسون الغنم المحمَّلة فيها على القارب فهمس في أذن شاهر: أهؤلاء المسلحون من

الشّـرطة أم مـن الجيـش؟
ردَّ عليـه بصـوت خفيـض: قـد يكونـون مـن الأمـن العـام أو مـن حـزب اللـه لا فـرق، فالحـزب وضـع يـده على مقـدرات الدَّولـة اللبنانيـة وصـار دولـة داخـل دولـة، وأصبـح الآمـر الناهـي فيهـا، واشـتغل بتهريـب النَّـاس والمخـدرات، ولـه شـبكات دعـارة في العالـم، وصـار لبنـان مزرعـة لـه أيـضاً كمـا هـي سـوريا مزرعـة لآل أسـد
وكيف يسكت شعب لبنان عن تجار الدّم والسَّماح لهم!
إنهـا السِّياسـة العالميـة ولا أريـد أن أتابـع، فأنْـهِ هـذا الموضـوع، وعلى مـا يبـدو أنـك لا ترغـب بفرارنـا مـن هـذا المسـلخ على خيـر
سـكت عمـر لحظـات ثـم عـاود السَّـؤال: أتعلـم أنّـي عـددت المحمّليـن في القـارب فوجـدت أنهـم يقاربـون الخمسـمئة راكـباً، بمعنـى أن الرِّحلـة تربـح مليـون دولار، والقـارب على مـا أعتقـد لا يسـاوي أكثـر مـن عشـرة آلاف دولار، فأيـن تذهـب هـذه الأمـوال برأيـك؟
إنهـم حـكام إيـران المجوسـية ؛ رأس الفتنـة والكفـر، يعبثـون في مصائـر النَّـاس وأعمارهـم، أمـوال أكثـر مـن أن تعـدّ وتحصـى تدخـل للمتنفذيـن مـن حـزب اللـه وشـركاء إيـران والنِّظـام السُّـوري، ولـكلٍّ نصيـب منهـا، ثـمَّ نظـر إلـى عمـر نظـرات لـوم وأردف محـذراً: لـن أسـمع منـك أيَّ كلام إلـى أن نخـرج مـن هـذا الجحيـم
طلـب القبطـان منهـم أن يتركـوا هواتفهـم الجوالـة على البـر، وقـد نبهوهـم منـذ بدايـة الرِّحلـة إلـى ذلـك، فأكثرهـم تخلـوا عـن هواتفهـم النّقالـة، وبعـد أن تـمَّ تفتيشـهم أخـذوا مواقعهـم على القـارب وقـرأ كلّ منهـم مـا يحفـظ مـن كتـاب اللـه، انطلـق القـارب يترنّـح مـن ثقـل حمولتـه، وكأنَّـه يقـول ذنبـي الوحيـد أنَّ أصحابـي لا يخافـون اللـه ولا يرعـون حرمـة لإنسـان أو لحيـوان
قال عمر: انظر يا شادي إلى وجوه الرُّكاب.
مابها؟ فهي كبقية وجوه البَّشر؟
ألا ترى أنّ اللون الأصفر قد غلب عليها وأنَّ الخوف بادٍ على محياهم!
ابتسم شادي وهز برأسه قائلاً: ووجهك أيضاً كليمون شديد الاصفرار.
إي واللـه الخـوف يقطـع الجـوف والسـرِّ بيننـا ؛ لـولا أنَّنـا أصبحنـا في البحـر

لقفزت وهربت بعيداً، حقاً الرُّوح غالية، ونظر إلى وجه أخته وكم هاله عندما شاهد البّراءة وقد داخلها الرُّعب فارتسمت عليها سكرات الموت شدَّ على يدها وضمها إلى صدره ليشعرها بشيء من الأمان الَّذي غادرها، وقد أحس في هذه اللحظة أنَّه أصبح الأب والأخ الكبير الَّذي سيحافظ على هذه الأمانة العظيمة

ابتعد القارب عن شواطئ بيروت وانسلخت الأضواء عن الليل وبدأ الظَّلام المقيت وكأنَّه لا نهاية له، ومع كلِّ موجة عالية كانت تقذف المركب المثقل بأشخاصه وهمومهم وخوفهم وأحلامهم، كانت صرخات النِّساء والأطفال تعلو طالبة النَّجدة، وصيحات الرِّجال المكتومة تقف في حناجرهم تكاد تخنق أصحابها. شعروا جميعهم بلا استثناء أنهم فروا من موت إلى موت ومن قدر إلى قدر، وأنَّ البحر العاتي الَّذي لا يرحم سيجعل من لحومهم طعاماً لساكنيه من الأسماك، كما جعل حكام بلادهم من دمائهم وأرواحهم فداء لعروشهم

شدَّت حفصة على يد أخيها عمر وبدأت ببكاء لا ينقطع على الرَّغم من محاولاته زرع الطَّمأنينة في قلبها، ولكن لم يجد إلى ذلك سبيلاً، فظلمات البحر وسواد الليل والقارب القديم، لم يترك محلاً لأيّة ثقة، وممَّا زاد الطِّين بلّة الازدحام الشَّديد وبكاء الأطفال، لم يستطع أحد منهم أن ينام رغم تعبهم وحاجتهم للنوم، فقد طار من عيونهم وهجرهم كما هجروا وطنهم إلى غير رجعة، وإثر موجة عالية قوية ترنَّح المركب، وكاد يَغرق بعد أن دخلت المياه جوفه وخطفت قلوب راكبيه قبل أن تخطف رضيعاً من بين يدي أمّه

لم تصحُ الأمُّ على الكارثة إلَّا بعد أن استقر القارب ولم تجد رضيعها بين يديها، حاولت البَّحث عنه بحركات طائشة مضطربة كمن فقد عقله، ولكن صرخات الحزن الَّتي أطلقتها قد ضاعت بين السَّماء العالية والبحر

الغاضب، هلع ولغط وارتباك وحيرة وصراخ وعويل وبكاء أصاب القوم، وكلُّ هذا لم يطفئ غضب البحر، تمسك الرُّكاب ببعضهم حتَّى صاروا كصخرة صلبة لا تخترقها العواصف والأعاصير، إلى أن هدأت الأمواج وهادنت المركب ثمَّ أعطته الأمان، وباتا صديقين لا ينقطع حبل الودّ بينهما، تفقَّد الرُّكاب خسائرهم، فلم يجدوا إلا الأمّ المكلومة وقد خسرت رضيعها، حمدوا ربَّهم على ماحباهم من نعمة النَّجاة بأرواحهم

ولكن أين نحن قال شاهر لقبطان المركب؟

والله لم أعد أعرف الاتجاه، فالظّاهر أنّ الموج أخذنا بعيداً والوقود كاد ينفد

وما العمل؟

ليس لنا إلَّا انتظار الفرج من سفينة مارّة لتنقذنا، ولندعُ ربنا عسى أن يهيئ لنا أولاد حلال ؛ فليس بالإمكان أفضل ممَّا كان

ولكنك تستطيع أن تطلب النَّجدة عن طريق هاتفك الخلوي؟

لا أستطيع فقد أضعته بسبب ارتفاع الموج ولم يتبقَّ لنا أيَّة وسيلة غير الدُّعاء

هجوم خاطف

اِنقطع التواصل بين خالد وجماعته المهاجرة وقد وجد نفسه وحيداً في عالم لم يعد يرغب فيه
فأخوه وأخته رحلا وكذلك ابنا عمه، وقبلهم كان رحيل أبويه الفاجع الأليم.
تابع ثورته وانخرط بشكل أكبر في الثَّورة المسلحة وخاصَّة بعد أن صار لها أجنحة وقيادة، وحتَّى سُمّي أكبر فصيل في الغوطة بجيش الإسلام، وأصبح عدد منتسبيه يقارب العشرين ألفاً، وغنم العديد من الأسلحة والمعدّات من معاقل النِّظام وفرقه العسكرية، فقد أغار على المناطق العسكرية ودحر وقتل كثيراً من جنود جيش أسد وصارت له سطوة وقوة، ومكانة عظيمة، وأصبح يشار إليه بالبنان، ومع تشكيل جيش الإسلام تشكل فيلق الرَّحمن بعدد أقل ولكن بقوة لايستهان بها. وضمّت المنطقة كثيراً من الفصائل منها: جبهة النَّصرة، ودولة الإسلام التَّي أطلق عليها لاحقاً اسم داعش اختصاراً لها

وبفضل شجاعة خالد وإقدامه وتفانيه بالثَّورة تبوّأ مركزاً قيادياً في جيش الإسلام، واستمر بهجماته على مراكز جيش أسد، كما أنَّ طائرات أسد ومدافعه المرابطة على جبل قاسيون لم تفتر عن ضرب البنى التَّحتية والفوقية وقصف المنشآت الخاصَّة والتَّجمعات السَّكنية، وحصد أرواح الأبرياء، فبراميل أسد وطائراته لم تفرّق بين مقاتل وأعزل، إنما اعتبرت كلّ من يسكن في المناطق الخارجة عن سلطتها إرهابيّاً يستحق القتل وإن كان طفلاً
اليوم قرر المجتمعون الثَّائرون الرَّد على فظائع نظام أسد من قتل وخطف للناس وتغييب في سجونه المختلفة ؛ بالهجوم على مساكن عدرا العماليّة، وهذه المساكن تقع شمال شرق دمشق في المنطقة الصِّناعية. وقد كان

هـدف الثُّـوار مـن هـذا العمـل خطـف أبنـاء وزوجـات أفـراد الجيـش النُّصيـري سـاكني هـذه المنطقـة، فقـد دأب نظـام أسـد منـذ أن أوصلتـه قـوى الاسـتكبار العالمـي للهيمنـة على الحكـم في سـوريا، على بنـاء تجمعـات سـكنية كبيـرة حـول عاصمـة الأمويـين لصـف الضُّبـاط وضبـاط الطَّائفـة النُّصيريـة، حتَّـى إنَّـه منحهـم منـازل شـبه مجانيـة، فـكان يقتطـع مـن مرتباتهـم جـزءاً يسـيراً مـن المال ليغريهـم بالانتسـاب لجيشـه، فينتقلـوا مـن ضيعهـم ومدنهـم الصَّغيـرة القابعـة معظمهـا في الجبـال العاليـة، ويسـكنوا أطـراف العاصمـة، حتَّـى يُكوِّنوا سـياج حمايـة لهـذا النَّظـام في مسـتقبل الأيـام وهـذا مـا حـدث

وفي هجـوم سـاحق ماحـق سـريع دخـل الثُّـوار منطقـة قطعـان جيـش أسـد في مسـاكن عـدرا آنفـة الذكـر، فمنهـم مـن فـرَّ كعادتهـم وتركـوا زوجاتهـم وأطفالهـم، فمـن ينتسـب لجيـش أسـد لا يمكـن لـه أن يمتلـك ولـو قليلاً مـن كرامـة أو شـهامة، بـل كان يغـوص في وحـل الدياثـة والحقـارة، فيرضـي لنفسـه أن يفـرَّ تـاركاً عائلتـه عرضـة لشـتى الأخطـار! ومنهـم مـن تمكّـن الثُّـوار مـن رقابهـم فأذاقوهـم مـرارة المـوت

دخـل خالـد وصديقـاه حاتـم وبـراء منـزلاً ظنـوه خاليـاً مـن السـكان، ولما وصلـوا إلـى صالـون البيـت سـمعوا صـوت طفلـة تبكـي بصـوت خفيـض، لقَّمـوا أسـلحتهم ووجهوهـا نحـو الصَّـوت، فتـح خالـد البـاب بسـرعة فـرأى امـرأة جاءهـا المخـاض، وطفلـة صغيـرة جعـل منهمـا الخـوف حطبـة جامـدة عنـد رؤيتهـم

صرخ براء متسائلاً: هل هناك غيركما في البيت؟

لم تستطع المرأة أن تتكلَّم إلاَّ أنها أشارت بيدها نافية.

تابع براء: أين زوجك؟

بعـد أن اسـتجمعت المـرأة قواهـا قالـت: الحقيـر السَّـاقط فـرَّ عندمـا سـمع بقدومكـم، وتركنـي وطفلتـه وجنينـي

ما مهنة زوجك؟

مساعد بالأمن العسكري.

من أين أنتم؟

من بلدة صغيرة تابعة لمحافظة طرطوس.

إذاً أنتم من الطَّائفة النُّصيرية الَّتي أوغلت بدمائنا وقتّلت أولادنا ويتّمت من بقي منهم حياً
لم تردّ المرأة فقد علمت أنَّ ساعة الحقيقة أزفت، وأنَّ ما وضعوه في القدر سيجدونه حتماً عندما تبدأ الوليمة

قال حاتم: جاء وقت الانتقام ؛ العين بالعين والسّن بالسّن والبادئ أظلم، فاثأر - يا خالد - لأمك وابقر بطن هذه المرأة واقتل طفلها واجعل من دمائها وجنينها وطفلتها شراباً لتشفيَ به غليلك وغليلنا، لاتتردد ؛ فلولاهم لما كان هذا النِّظام ولما استطاع أن يرتكب من المجازر ما ارتكب
قال خالد: رويدك يا حاتم ؛ لاتدع الغضب يقتل الرَّحمة في قلبك، فالمرأة حامل ويكفي الطِّفلة ما تشعر به من خوف
ردَّ حاتم: ألا تعلم كيف قُتل والدي! ألم تدرِ كيف أجبروه على حفر القبور لآلاف الأبرياء
وعندما أنهكه الحفر أطلق حيدرة الضَّابط النُّصيري الرَّصاص على رأسه فأرداه صريعاً، ولن أقصَّ عليك ماعلمناه من فظائع ارتكبتها قوات أسد، أنسيت الكيماوي! أنسيت القصف اليوميَّ لبيوت الأبرياء! والرُّؤوس المقطّعة والأشلاء المرمية في شوارعنا وأزقتنا

لا لم أنسَ أمي وأبي وجيراني وأهل بلدي، ولكن - يا حاتم - نحن لسنا مثلهم، ألم تسمع عن وصايا رسولنا العظيم عندما قال: اغزوا بسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، لاتغدروا، لاتغلّوا، لا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولاشيخاً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة، ولا تهدموا بناء... فلن أخالف وصايا رسولنا العظيم، ولن أحيد عن الحقِّ فأجعل حقدي على من مثَّل بأمي واغتصبها يُعمي بصري، أنا مسلم قبل أن أكون ثائراً، وقد اتَّفقنا قبل هذا الهجوم على هذه الأساسيات، فالنِّساء والأطفال والشُّيوخ ليسوا أهدافاً لنا، ومن نريد أن ننتقم منهم هم رجال أسد وعناصر جيشه السَّاقط المجرم

وافق براء على كلِّ ما قاله خالد، وأذعن حاتم على الرَّغم من أنَّه كان يريد أن يشرب من دم كلِّ من يراه يتبع من غدر بأبيه وأذاقهم الذُّل وفجعهم
انتهت المعركة وأسر الثُّوار عشرات من ذوي الضُّباط وصف الضُّباط على أمل أن يبادلوهم بنسائهم وبناتهم وأطفالهم الَّذين خُطفوا وغيّبوا على يد ميليشا أسد الطَّائفية
حمل براء الطِّفلة وساعد خالد المرأة الحامل واتجهوا إلى مدينتهم وزع الأسرى في عدة مناطق حتَّى لا يقصفهم النِّظام وينتهي من قضية تبادل الأسرى والمختطفين، فهو لا يهتم حتَّى بالملايين من طائفته ومواليه، فليس في تفكيره إلَّا كيف له أن يحافظ على كرسي حكمه
في طريق عودتهم توسّلت المرأة إلى خالد - وكان اسمها سحر - وألحّت عليه ألَّا يتركها فهي تخاف أن تقتل، فقد رأت الشَّهامة في تصرفه والرَّحمة في وجهه، وهذه المروءة الَّتي أحسّت بها في هذا الشَّاب لم ترها في زوجها الَّذي تركها في موقف عصيب

أخذ خالد سحر وأوصلها إلى بيت أخته، وأوصاها بمعاملتها أحسن معاملة وتلبية كلَّ ما تحتاجه وخاصَّة أنها في حالة وضع بين ليلة وضحاها
بعد يومين وضعت طفلاً وأقسمت إنها ستسميه خالداً.
حاولت الجهات الثَّورية مبادلة أسرى زوجات النِّظام وأطفالهم ولكن النَّظام لم يُعطِ هذه الصَّفقة أيّ اهتمام، وكان رده (بلّوهم واشربوا ماءهم) لسنا بحاجة إليهم وعليكم أن تطعموهم لنوفّر ثمن علفهم
بعد أن شاهدت سحر المعاملة الحسنة من أخت خالد طلبت منها أن تعلِّمها الإسلام والصَّلاة وأقسمت إنها في حال إطلاق سراحها لن تعود لزوجها النَّذل وعقيدتها المنحرفة

حقيقة العالم

بعد سكون البحر وانجلاء الليل، أشرق الكون بنور الشَّمس الَّذي صار رويداً رويداً يُلهب الأجساد المحطّمة المرتعدة رعباً، الحالمة بالوصول إلى برِّ النجاة، راحت السَّكرة وجاءت الفكرة كما يقال، فقد ذهب الخوف من الغرق وحلَّ مكانه القلق من الضَّياع وشحّ الماء وقلة الطَّعام، فالمدة المتوقّعة للرَّحلة عشر ساعات ؛ فلا حاجة لاصطحاب الطَّعام، وقليل منهم من جلب قوارير ماء ليشربها عند الحاجة الماسّة إليها، وقد بدأت بالنَّفاد، وكلَّما مضى وقت تعاظم التوتّر والهلع من المجهول، فجميع مَن في المركب أحسّوا أنَّ النِّهاية وشيكة، وأنَّ البحر سيبتلعهم هياكل عظيمة فيها بقايا أرواح، هذا إن لم يغرقوا قبل ذلك، أفلت الشَّمس وحلّ الظلام ببطء قاتل، وهذا يعني أنَّ هناك ليلة أخرى قد تكون أدهى من سابقتها، لكنها انقضت هادئة على غير المتوقع، رغم أن الرُّعب ما زال مستحوذاً على أفئدتهم، وكالصَّباح السَّابق كانت أشعة الشمس حارقة وقد نفدت آخر قطرات الماء، وبدأت الأصوات تخفت والحركة تضعف، فالقوى خائرة والآمال واهية ؛ ولم يتبقَّ إلَّا بصيصُ باهت بانتظار معجزة
سألت حفصة أخاها: هل سنموت؟

لا لن نموت سنعيش ونحكي قصصنا لأولادنا.
ولكني أرى جميع الرُّكاب يتضرعون إلى الله ويصلّون كأنهم يودّعون الحياة!
بعد قليل ستجدنا سفينة ما وتنقذنا، لا تخافي، خذي من يدي هذه الرَّشفات من الماء التي خبأتها لكِ
لكنك لم تشرب منذ ساعات!

لا عليك ؛ فأنا رجل أستطيع التَّحمل وأنت فتاة تحتاجين الماء أكثر مني.

أتـدري - يـا أخـي - أنـا لا أهـاب المـوت ولا أخافـه! بـل أطلبـه في كثيـر مـن الأحيـان

ولمَ يا حفصة فما زلتِ صغيرة على الموت؟

لـو تعلـم - يـا أخـي كـم - اشـتقت لأمـي وأبـي ولصديقتـي حسـناء الَّتـي ماتـت عندمـا قُصفنـا بالكيمـاوي! وأنـا إلـى الآن لـم أفهـم لـمَ جيـش بلـدي قصفنـا وقتلنـا! لـم أفهـم مـا الذَّنـب الَّـذي ارتكبنـاه ليعاملنـا أبنـاء جلدتنـا وكأنَّنـا مجرمـون فـارّون مـن العدالـة

يـا أختـي، ثقـي باللـه أنَّنـا سـنخرج مـن هـذه المحنـة على أفضـل حـال. طمأنها كأنَّـه كهـل تقـيّ حكيـم صقلته السُّـنون

في الجانـب المقابـل لهـم هنـاك شـاب يهلـوس ؛ فنقـص الماء أثّـر على تفكيره، فبعـد أن صـرخ بأصـوات غيـر مفهومـة رمـى بنفسـه في ميـاه البحـر ليشـرب منهـا رغـم ملوحتهـا! حـاول العديـد مـن الشَّـباب مـدَّ يـد العـون إليـه، لكـن البحـر كان أرحـم منهـم فاحتضنـه مخلّـصاً إيّـاه مـن الأحـزان والأهـوال الَّتـي أجبرتـه على ركـوب المـوت

بكـى كلّ مـن رأى هـذا المشـهد، وبكـت الطّفلـة حفصـة حتَّـى ابتـل وجـه عمـر وثيابـه، فقـد كان يحتضنهـا ليخفـف عنهـا مـا شـاهدته

مـرَّت سـاعات وقـد تبخّـرت آخـر ذرات الأمـل لـدى المهاجريـن، إلـى أن لاح في الأفـق القريـب زورق خفـر كبيـر يرفـع العلـم اليونانـي، دبّـت الحيـاة فجـأة في أجسـاد المهاجريـن، وطفقـوا يرفعـون أيديهـم وأصواتهـم العاليـة تختـرق الموج والسَّـحاب ؛ فاليـوم البحـر على مـا يبـدو غاضـب وسـيزبد ويرعـد بعـد قليـل

وصـل زورق النَّجـاة اليونانـي، فحـاول الشَّـباب القفـز إليـه، فـإذا برجـال خفـر السَّـواحل يضربونهـم بالهـراوات ويصرخـون بهـم بأصـوات عاليـة، قـدّر المهاجـرون أنهـا شـتائم، ثـمَّ قـام رجـال الخفـر بربـط قـارب البؤسـاء بحبـل واحد مـن المقدمـة دون أيَّـة إجـراءات أمـان وكأنَّ حيـوات الفارّيـن لاقيمـة لهـا، وأنهـم سـيهدونهم إلـى البحـر الجائـع، دقائـق وانقلب مركـب اللاجئيـن رأساً على عقب واختلـط الرِّجـال بالنِّسـاء بالأطفـال، وحـاول كلّ منهـم طلـب النَّجـاة لروحـه إلَّا عمـرَ فقـد انهمـك بالبحـث عـن أختـه بيـن الأمـواج العاليـة، وكأنَّـه يبحـث عـن

كنـز فُقـد منـه بيـن لجـج الأمـواه، إلـى أن شـاهدها فسـبح باتجاههـا، وعندمـا رفـع يـده ليمسـك بهـا رأى نظـرة مـا كان يتمنـى أن يراهـا! نظـرة وداع حزينـة تقـول: سأسـلِّم لـك على أبوينـا، لـن ينسـى هـذه النَّظـرة طيلـة عمـره فقـد كانـت فاصلـة بتاريخـه، ثـمَّ حـال بينهمـا المـوج وصـارت مـن المغرقيـن
ركل الميـاه بقدميـه ولكمهـا بقبضتيـه قهـراً وفجيعـة، وصـرخ بيـأس طالـباً مـن البحـر أن يهـدأ، رجـاه أن يعيـد أختـه إلـى سـطحه ليحملهـا بقلبـه قبـل يديـه، ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادي، فقـد ابتلعهـا ولارادّ للقضـاء، اختفـت حفصـة في ظلمـات البحـر واختفـت معهـا السَّـعادة مـن قلـب عمـر ووأد حـبّ الحيـاة بانتهـاء حياتهـا

حـاول مـن تبقّـى مـن الشَّـباب التَّمسّـك بالقـارب المنقلـب، بعـد أن صـار كلُّ الأطفـال والنُّسـاء والعجائـز بضيافـة البحـر الَّـذي أخفاهـم عـن عيـون الباحثيـن عنهـم
في هـذه اللحظـات وصـل زورق آخـر لخفـر السَّـواحل اليونانـي، فانتشـل القلـة الَّذيـن كتـب اللـه لهـم عمـراً ثانـياً، هـؤلاء المسـاكين الَّذيـن فـروا مـن حقـد وحـوش إلـى غـلّ وحـوش أخـرى وأغلالهـا
نجـا عمـر وشـادي وشـاهر وبعـض الشُّـبان الأقويـاء وقُتـل عمـداً وغـدراً مئـات الظَّانيـن أنَّ العالـم الحـرَّ سـينقذهم
ومـا إن اسـتقرّ زورق خفـر السَّـواحل قـرب الشـاطئ حتَّـى اقتادوهـم إلى معسـكر يسـمى (الكامـب) وهـو سـجن مفتـوح يلـمُّ فيـه مـن يهـرب مـن مكـر البحـر وغدر خفـر السِّـواحل إلـى أقـرب شـاطئ لأوروبـا مـن ناحيـة سـوريا

مكر القريب

كان يـوماً كارثـياً على خالـد ؛ فقـد اتِّصـل بـه أخـوه عمـر، وأخبـره أنَّ أختهمـا أصبحـت في ضيافـة الرَّحمـن لاحقـة بأمهـا وأبيهـا، كـم شـعر بالأسـى! وكـم بكـى! فأختـه الصَّغيـرة أكثـر مـن يحـب ؛ فقـد كانـت تذكِّـره بالفقيـدة الغاليـة أمِّـه، كـم تمنَّـى في هـذه اللحظـات لـو أنَّـه أمسـكها بيـده ولـم يدعهـا تذهـب خطـوة واحـدة! مـا هـذه الدُّنيـا! تسـاءل: هـل نسِـيتْ العالـم بأجمعـه وصبّـت جـام غضبهـا علينـا! أنسـتحق أن تكرهنـا وترمينـا في قـاع لا نهايـة لـه! إلـى متـى سنسـتطيع تحمـل الألـم! وإلـى متـى سـتدير الحيـاة لنـا ظهرهـا! ألـم تنتـهِ مأسـاتنا! أذنبنـا أنَّنـا مسـلمون عـرب حتَّـى نُفتـرس كالأغنـام الضَّالة عـن القطيع! ألـم تشـبع ذئـاب العالـم مـن لحومنـا الغضّـة

ثـمَّ أذعـن للأمـر الواقـع، وجعـل اللـه حسـبه، وتابـع ثورتـه، ولكـن في هـذه المـرَّة كانـت لديـه غصّـة في الحلـق وجـرح لـن يندمـل مـا دام حـيّاً
مضـت ثلاث سـنوات على بدايـة الثَّـورة ومـا زالـت كـرة الثَّلـج تكبـر، وانشـقاقات العسـاكر ذوي الرُّتـب العاليـة والرُّتـب الأدنـى بالجملـة، ولـم تنفع القبضـة الأمنية وإشـراك الجيـش والميليشـيات الطَّائفيـة في كسـر الجمـود الحاصـل في موقـف الطَّرفيـن، إلـى أن قـرّرت روسـيا التَّدخـل المباشـر في العمليـات العسـكرية بعـد أن كانـت تسـاعد النِّظـام مـن خلال إدارة عسـكرية ومسـاعدات حربيـة
وهـذا مـا جعـل التَّهديـم والتَّخريـب والقتـل في ذروتـه، فلـم يعـد أيّ شـيء يقـف بوجـه الآلـة العسـكرية المشـتركة بيـن رئيـس العصابـة السُّـورية ومشـروع إيـران المجوسـي التَّوسـعي وميليشـيات الشِّـيعة النَّاقمـة على أهـل السُّـنة، ولـم يـرضَ العالـم المنافـق أن يـرى أيَّـة منطقـة في وطننـا العربـي الحبيـب وقـد تحـررت مـن نيـره وصـار قرارهـا لشـعبها، فطلبـت إسـرائيل وأمريـكا والصّيـن مـن روسـيا حليفـة أسـد القديمـة التَّدخـل بمـا لديهـا مـن قـوة عسـكرية قاهـرة،

لنصرة هذا النِّظام المتهالك ولتحفظ للقوى العالمية المستكبرة مصالحها، وتقف سداً منيعاً بوجه أيّة فكرة تحررية قد تخرج للوجود
ولم يُكذِّب بوتين رئيس روسيا خبراً كما يقال، فأرسل طائراته العملاقة وحاملة سفنه وصواريخه المدمرة، وكلّ ما يملك من قوة غاشمة إلى سواحل سوريا، وأنشأ قاعدة ضخمة في مطار حميميم صارت مستقبلاً أرضاً للكيان الرُّوسي المحتل، وللأسف أن من موَّل الحملة الغاشمة بعض من دول العرب وإن شاء الله نردها لهم في أعيادنا عندما نتخلَّص من الأغلال الَّتي أدمت أعناقنا

وتستمر الأيدي الخفية بالتَّلاعب بمصائر السُّوريين والعبث بثورتهم، فيصبح لكلّ فصيل داعم يتبع لأجندته، ويُضخ المال الخليجي والعالمي المشبوه ليشتري ضعاف النُّفوس وليحقق مآربه بإفساد أخطر ما قد يمرُّ على منظومة الحكم العربي، الَّتي هي أصلاً مرتبطة بالنَّظام العالمي الَّذي وافق على تسليمهم الحكم وسكت على ظلمهم وقمعهم وتفرُّدهم بالحكم لقاء خدمات تؤديها هذه الحكومات له، فشيِّدت السُّجون والمعتقلات، وسُجن أصحاب الرَّأي وقُتل الإبداع وحُورب الفكر، ورُفع شأن الحثالة واستُبعِد أصحاب الحكمة عن واجهات الحياة العامة
حقاً قد أخافت ثورة سورية هذه الرُّؤوس العفنة فحاربتها بكلِّ ما تملك من قوة ومكر وخديعة وشراء للذمم، وهذا ما حدث في غوطة دمشق وما لحقه في بقاع الأرض السُّورية
اليوم أُتّخذَ قرارٌ معدٌّ سابقاً من الجهة الدَّاعمة لجيش الإسلام بمحاربة داعش فقد بدأت هذه القوة تنمو ويكثر أنصارها
قال عثمان لخالد: ما رأيك بما يجري من معارك ضد داعش؟
هي فئة باغية وقد استمرأت دماء المسلمين قبل غيرهم وأظنّهم أقرب للخوارج
ولكني أراهم يفدون بدمائهم وأورواحهم ويثخنون بالميلشيات الشِّيعية وجيش النِّظام أكثر ممَّا نُثخن نحن

هـذا لا يكفـي، فحُرمـةُ دمـاء مسـلم أشـدّ عنـد اللـه مـن هـدم الكعبـة، أتحسـب أنَّ داعـشَ قـد أتـت مـن سـراب؟ اللـه أعلـم مـن وراءهـم ومـن يمولّهـم! فهـذا التَّنظيـم العالمـي عليـه كثيـر مـن إشـارات الاسـتفهام
تقصـد كمـا هـو فصيلنـا وفصيلكـم، فنحـن أيـضاً تابعـون لأجهـزة مخابـرات عربيـة ونأخـذ الأمـوال منهـم
لا، نحـن نختلـف عنهـم كثيـراً ؛ فداعمنـا معـروف ويدعمنـا في وضـح النَّهـار وأجنداتنـا معروفـة أيـضاً، فنحـن نريـد إسـقاط النَّظـام ولا نطالـب بخلافـة للمسـلمين على العالـم الإسلامـي، وهـذا أكثـر مـا تخشـاه دول العالـم، ولا نطالب بحكـم الشَّـرع، بـل نريـد قانـوناً مدنـياً مسـتمداً مـن حكـم الشّـرعية، لذلـك تـرى أنَّ بعـضاً مـن حـكام الـدُّول العربـي تقـف بجانبنـا
مسـكين أنـت يـا خالـد ؛ على الرَّغـم مـن أنَّنـي منتسـب إلـى فيلـق الرَّحمـن وعلى الرَّغـم مـن معرفتـي المسـبقة أنهـم لا يريـدون الخيـر لثـورة سـورية، ولكنـي متأكـد أنَّ القتـال مـع داعـش لا يعـدو قتـالاً على أجنـدات بيـن قـواد يحاولـون كسـب ودّ داعميهـم وتقديـم فـروض الطَّاعـة لهـم
لـم يصـل الحـوار إلـى اتِّفـاق فـكلٌّ منهمـا تمسَّـك برأيـه، إذ تابـع خالـد محاربـة داعـش إلـى أن دحروهـم مـن مناطـق الغوطـة وأنهـوا حلـم داعـش في هـذه المنطقـة

وتتوالـى الأيـام غيـر بعيـدة فـإذا النَّفيـر العـام لجيـش الإسلام يُعلن لطـرد جبهة النّصـرة مـن هـذه المناطـق، فكمـا هـي داعـش كانت جبهـة النِّصـرة، فهـي أصلاً انبثقـت مـن داخلهـا بعـد أن انفصـل الجولانـي قائـد جبهـة النُصـرة عـن أبـي بكـر البغـدادي خليفـة المسـلمين كمـا كان يسـمي نفسـه هـو وأتباعـه، فـكان القـرار الحتمـي بإفـراغ الغوطـة مـن هـذا الفصيـل الَّـذي يملـك توجهـات القاعـدة العالميـة، وقـد كان يرأسـها الظَّواهـري ويقودهـا مـن أفغانسـتان
مـا رأيـك اليـوم - يـا خالـد - بهـذه المسـتجدات! هـل سـتقاتل جبهـة النصـرة أيضـا سـأل عثمـان خالـداً؟
وهـل تراني أعصـي أمـر قيادتـي؟ ألَّا تعلـم أن الرَّسـول حثّنـا بـل أمرنـا بالانصيـاع

لأوامـر القيادة
أعلـم ذلـك ولكـن هنـاك مـن إخواننـا وأقاربنـا في الجهـة المقابلة فهل سـتوغل بدمائهم
في مقدورهم ترك هذا الفصيل الباغي والالتحاق بنا.
وما أنت فاعل إن لم يتركوه؟
سـأقاتل بجانـب رفاقـي وقاداتـي فهـذا أمـر لا مفـرّ منـه، فلا يمكـن أن يكـون في أرض واحـدة أكثـر مـن قيـادة وأكثـر مـن هـدف
ولكن هدفنا مشترك وحلمنا واحد يا خالد.

لا ياصهـري، هـم مغالـون كمـا كانـت داعـش ونحـن نمتلـك ديـناً وسـطياً ولـن نسـمح لهـذا الفكـر الضَّـال بالتَّغلغـل بيننـا وإفسـاد عقيدتنـا، فيضعنـا بمواجهة الأمـم
انتهـت المعركـة بطـرد جبهـة النُّصـرة إلـى محافظتـي حلـب وادلـب وريفهمـا واسـتتبّ الأمـر لفصيلـي جيـش الإسلام وفيلـق الرَّحمـن
ولكـن مـن سـعى لتدميـر الثَّـورة وإيقـاع الثَّـوار ببعضهـم لـن يسـمح بـأيّ انتصـار، ولـن يتـرك السَّـاحة لأهلهـا
مـاذا تـرى اليـوم يـا خالـد؟ هـل سـتقتلني؟ فالفتنـة على أشـدّها بيـن جيـش الإسلام وفيلـق الرَّحمـن والقتلـى ملأت الشَّـوارع والنَّفيـر العـام بيـن الفصيليـن معلـنُ

نكَّـس خالـد رأسـه وأجـاب والدُّمـوع تغالبـه: لـن أوغـل بدمـاء مـن أعتقـد أنهـم على نفـس المنهـج والتَّفكيـر والعقيـدة
أتعلم - يا خالد - ما سبب القتال الدَّموي الَّذي يحصل الآن؟
والله لا أعلم إلَّا أنَّنا أخوة وأهل منهج واحد.
قـد سـحبت السِّـعودية ملف سـوريا مـن يد قطـر، ومعروف مـدى الـخلاف الحاصل بينهمـا، فانتقـل الـخلاف مـن قمـة السِّياسـة العربيـة إلـى صغـار تابعيهـا، هـل عرفـت لـمَ كنـت أحـاول منعـك مـن قتـال داعـش وجبهـة النَّصـرة، ليـس لأنهمـا

على حـقٍّ، ولكـن لأنَّ مَـنْ وراءهمـا على باطـل، رحـم اللـه شـهداءنا ورحـم اللـه مـن قُتـل مغـدوراً لا يعـرف رأسـه مـن قدميـه
وفي عمليـة جبانـة قصفـت القـوات الرِّوسـية مقر زهـران علوش ؛ فأردتـه صريعاً بعـد أن تراجـع عـن مواقفـه وشـقّ عصـا طاعـة داعميـه، فحـاول الانقضـاض على قصـر المهاجريـن مـكان سـكن بشـار أسـد، وقبـل تنفيـذ العمليـة قتلـه الـرُّوس بعـد أن تخلّـى عنـه داعمـوه، وأعطـوا إشـارة أنَّ الرَّجـل خـرج مـن تحـت عباءتنـا

ابتعـد خالـد عـن جيـش الإسلام وانفـضّ عثمـان عـن فيلـق الرّحمـن، وتـركا القتـال المسـلح بعـد أن أوغـل أصحـاب الثَّـورة بدمـاء بعضهـم، وقـد أسـفر الاقتتـال الدَّاخلـي عـن مئـات مـن القتلـى وآلاف الجرحـى وكلّ ذلـك لترضـى القـوى العالميَّـة ولـن ترضـى، ولـو أنَّ هـذه الدِّمـاء اسـتعملت لدخـول دمشـق وطـرد المحتليـن منهـا لكفتنـا مئـات الآلاف مـن القتلـى

إنسانية زائفة

بعد أن وُضع عمر وشادي وشاهر ولدا عمه في (كامب) وبدأت قصّة خفر السّواحل اليوناني، وإغراق مركب المهاجرين عمداً تتكشّف للإعلام، خشي المسؤولون اليونانيون من تأثر صورتهم الإنسانية الّتي يتبجحون بها أمام العالم، فحاولوا طمس الجريمة بالضّغط على الناجين ليغيّروا أقوالهم صباحاً جاء عدة رجال معهم مترجم، وطلبوا لقاء مع شادي وشاهر وعمر، بعد أن رحّب المسؤول المتحدِّث بعمر وولدي عمه، وشرح لهم أنَّ ما حصل كان خطأً فردياً وسيحاسب من ارتكبه. أجابه شاهر بغضب: ولكن الأمر كما سمعنا تكرّر مع أكثر الموجودين في المعسكر، فقد حاول رجال الخفر إغراق كثيرٍ من المراكب، حتّى إنهم قاموا بضرب المهاجرين وسرقة أموالهم، وتركوهم عراة في عرض البحر، هل تريد أن تسمع شهادات النّاس في المعسكر؟

أجاب الرَّجل: لا داعي، سنحاسب المتسبب كما قلت لك، ما يهمّنا الآن أن تتراجعوا عن تصريحاتكم للإعلام، وسأعرض عليكم أمراً يخفف كثيراً من عناءكم، وربما تستطيعون متابعة سيركم إلى الجهة الّتي ترغبون، فنحن نعلم علم اليقين أنَّ الإقامة في اليونان ليست هدفاً لكم، إنما هي ممرّ عبور لأوروبا، وإذا غيّرتم أقوالكم فسأخرجكم من هذا المعسكر وأعطيكم إقامة تستطيعون الوصول فيها إلى خارج الحدود اليونانية
أجابه شاهر: وباقي المحتجزين ماذا ستفعلون بهم؟
نتركهم في المعسكر لترى الدول ما عليها فعله معهم.
ردْ شادي: انتظر يا أخي قد فهمت ما ستقوله وأعطني الفرصة لأردَّ أنا: يا سيِّدي، قد هربنا وخاطرنا بأرواحنا حتّى لا نَظلم أو نُظلم، فهل تريدنا أن نغدر بهؤلاء المساكين لتحسين شروط العبيد، لن نكون جسراً لكم

لتغطّوا جرائمكم ضد الإنسانية الَّتي تفتخرون بها وتكذبون على أنفسكم قبل الآخرين

وقبل أن ينفض اللقاء قال عمر: هل تدري - يا سيِّدي - أنَّ أختي الصَّغيرة البريئة قد قتلها رجالك لأنها ظنّت أنكم أهل لنلتجئ إليكم؟ هي لم تقرأ تاريخكم القديم، وماذا فعلتم بحروبكم، وكم قتلتم لأجل مصالحكم! وكم اعتديتم على الإنسان والإنسانية

انتهى اللقاء، وخرجت اللجنة اليونانية والحنق بادٍ على وجوه أعضائها، وعاد الشَّباب إلى مكانهم في المعسكر

بعد أن نبّه شاهر باقي ساكني المعسكر عمّا يحاول اليونانيون فعله ؛ من طمس الجريمة ورشوة من يقف معهم علانية في أعين المهاجرين، وبينما هم جالسون يحتسون الشَّاي فإذا امرأتان قادمتان إليهما، وبعد أن سلَّمتا عليهم، قالت إحداهما: أنا اسمي شهلا من مدينة بانياس من قرية البيضا بالتَّحديد هل تعرفون أين تقع؟

أجابها شادي: ومن لا يعرف بانياس وأريافها وطبيعتها الخلابة، هي قطعة من قلوبنا قبل أن تكون من بلدنا، وهي على شاطئ البحر المتوسط تتبع لمدينة طرطوس السَّاحلية

أجل هي كذلك، وهذا ما جرَّ علينا الويلات والنَّكبات.

وأيَّة كارثة يا أختنا قال شاهر مستغرباً!

بانياس تلك المدينة الطَّيبة بريفها المسلم وأرضُها وأهلها لم يكن في الماضي القريب يسكنها إلَّا أهلها، وهم من السّنة المتمسّكين بعقيدتهم، إلى أن جاء حكم حزب البعث ومعه الطَّائفة النُّصيرية، فجرَّت علينا الويلات، فقد نزل أهل القرى المحيطة ببانياس من أوكارهم الجبلية، وسكنوا هذه المدينة الوادعة، واختلطوا بسكانها الَّذين لم يقابلوهم إلَّا بالإحسان كما يأمر ديننا الحنيف، وصارت لهم مساكن وحارات وتعايشنا معهم بكلِّ سلام وهدوء، فنحن لا يهمنا دين المرء ولا مذهبه، بقدر ما يهمنا تعامله وأدبه، وتعايشنا بسلام، إلى أن قامت الثَّورة المباركة، فظنّنا أنهم أهلنا، وأنهم سوريون مثلنا، وما يؤلمنا سيؤلمهم، ولكن مع الأسف كشفوا عن وجههم

الطَّائفي البغيض الَّذي كان مختبئاً خلف ابتسامات كاذبة خادعة، تسلحوا بأسلحة وزعها عليهم رجال الأمن على الرَّغم من أنهم مدنيون، ووجهوها علينا عند أوَّل مظاهرة، وضربوا شبابنا وأدموهم واعتقلوا العديد منهم.
أرادت أن تتابع حديثها، ولكن حبال صوتها لم تسعفها فقد غلبها البكاء وتحشرجت الكلمات في حلقها
قدَّم عمر لها ولرفيقتها الشّاي، وطلب منها أن تمسح دموعها وتتوقف عن سرد قصتها ريثما تسترد أنفاسها

وبعد أن استعادت شهلا رباطة جأشها تابعت قصتها قائلة: بعد مظاهرات صباحية كبيرة يوم الجمعة ضد النِّظام خرجت من مساجد بانياس وقراها، هجمت علينا في قرية البيضا مساء قطعان المستوطنين القادمين من جبل الحقد والكره ونحن نائمون مطمئنون في بيوتنا، ولن تصدقوني إن قلت إنهم ليسوا ببشر فهم أشرس من الوحوش، كانوا مسلحين برشاشات وسيوف حادة، دخلوا علينا بعد أن حطّموا باب البيت، كنت أنا وزوجي وثلاثة أطفال، اندفع زوجي باتجاههم محاولاً الدَّفاع عنا، فإذا برأسه يتدحرج بين أرجلنا ؛ لقد قطعوا رأسه دون أيَّة رأفة ولا إنسانية، حمل أحدهما طفلي الصَّغير الَّذي لم يتجاوز العامين، وأمسكه من قدميه بالرَّغم من توسّلي، حتَّى إني انكببت على حذائه وقبّلته، فما كان من هذا الوحش الآدمي إلَّا أن رفسني برجله ودار عدة مرات حول نفسه وفي المرة الأخيرة ضرب رأس طفلي بالعمود الأسمنتي، فخرج دماغه منه وانتشر على حيطان الغرفة، وقبل أن أفقد الوعي رأيت وحشاً آخر يمسك طفلي الآخر ويشطره نصفين بالسَّيف، وثالث يضع قدمه على صغيرتي الجميلة الَّتي كانت تزيّن الشَّارع عندما تمرُّ فيه فقد كانت رائعة الجمال، وظلَّ يضغط على بطنها إلى أن خرجت أحشاؤها وانقطعت أنفاسها، لا أعلم متى استيقظت ولكن عندما أردت أن أقوم وجدت أحد سيوفهم قد غرز بفخذي، لم يشاؤوا أن يقتلوني، حتَّى أحكي قصتهم لكلّ من أراه، لقد دمّروني ودمروا أسراً كثيرة في قريتنا الوادعة الجميلة، حاولت البحث عن إخوتي،

ولكنـي لـم أجـد لهـم أثـراً، فقـد خُطفـوا جميعهـم وأغلـب الظَّـن أنهـم قتلوهـم لأنَّنـا وقفنـا مـع الثَّـورة، وأقسـم باللـه قـد شـممنا رائحـة شـواء الأجسـاد كمـا أن بعـض الفتيـات والنِّسـاء حاولـن الانتحـار خشـية مـن أن يغتصبهـنّ وحـوش البـراري الَّذيـن يطلقـون على أنفسـهم الجيـش البَّاسـل، أتعلمـون مـن كان يقـود هـذه الحملـة التّتريـة الوحشـية؟

أجـاب شـاهر: أجـل إنـه معـراج أورال أو علـي كيالـي كمـا يسـمي نفسـه، وهـذا الرَّجـل هـو مـن هاتـاي التُّركيـة نصيـري العقيـدة، اسـتعان بـه نظـام أسـد، لأنَّـه في الواقـع نظـام طائفـي عفـن نشـأ على أسـس طائفيـة، وقـد صـرح للإعلام أمـام أنظـار العالـم، دون خجـل أو وجـل أنَّـه سـيحاصر بانيـاس ويقتل أهل السُّـنة ويسـتبيح نسـاءهم وأعراضهـم ويعمـل سـيف علـيٍّ الطائفـي في رقابهـم

أجـل يـا شـاهر قـد وصفتـه بحقيقتـه قالـت شـهلا وأردفـت: وقـد قتـل أكثـر مـن خمسـمئة إنسـان بـريء في مجـازر بانيـاس ومـا حولهـا

انتهـت شـهلا مـن روايـة قصتهـا الباكيـة المبكيـة، لكنهـا حفـرت أخاديـد دامية لاحصـر لهـا في قلـوب المسـتمعين وخاصَّـة عمـر، فقـد شـهد اغتصـاب أمـه ومقتلهـا وحتَّـى إنَّهـم اغتصبـوه، وكـم كان يخجـل مـن نفسـه عندمـا يتذكـر مـا مـرَّ معـه

توقّـف الـكلام لحظـات ؛ لـم يعرفـوا ماذا سـيعقِّبون على قصَّة شـهلا ؛ أيواسـوها! أم يهنئونهـا بالنَّجاة

ولأجـل أن يبـدِّل الحديـث قـال عمـر: لا تحزنـي يـا خالـة فقـد مـرَّ معنـا مـا مـرَّ معـك وأكثـر، ولكـن كيـف أتيـتِ إلـى هنـا؟

هربـت إلـى لبنـان فلـم يعـد لـي أحـد في وطنـي السَّـليب، وركبـت زوق المـوت كمـا فعلتـم أنتـم، وخاطـرت بحياتـي الَّتـي لـم تعـد لهـا أهمَّيَّـة بعـد أن قُتـل أفـراد أسـرتي جميعهـم، ووصلـت إلـى جـزر اليونـان، فحجزونـي كمـا فعلـوا بكـم، وقـد تعرّفـت على صديقتـي حلا مـن القصيـر، وقـد كانـت هـي وابنهـا على قاربـي نفسـه وأصبحنـا صديقتيـن حميمتيـن، وعندمـا سـمعنا عـن موقفكـم الشَّـريف وعـن جوابكـم لما طلبـه مسـؤولو خفـر السَّـواحل اليونانـي أردنـا أن نتعـرَّف عليكـم ومـن أيـن أنتـم ؛ عسـى أن تسـاعدونا

قال شاهر: نحن من غوطة دمشق أهل الخير والمعروف، وما يجري علينا يجري عليكم، أنتم بحمايتنا ورعايتنا ولن نقصّر بحقكم إن شاء الله
سأل شادي: لم نسمع لصديقتك صوتاً فما قصتها؟
وكأن المرأة الثّانية كانت تنتظر من يسألها حتَّى تفرغ حملاً ثقيلاً في داخلها ناءت به حياتها

قالت: اسمي حلا من القصير التِّابعة لحمص والمجاورة لحدود لبنان.
قاطعها شاهر قائلاً: القصير مدينة كبيرة ومعروفة لدى كلَّ سكان سورية، وقد سمعنا عن مأساتها وكيف أن ميليشيا حزب الله هجَّرت أهلها بعد أن أذاقتهم الويلات
أجل، جميع من في سوريا سمع ولكن من رأى ليس كمن سمع، وأنا كنت في قلب الحدث، ويا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً
كنت أسمع طيلة حياتي عن أهل لبنان وشبابهم وطيب أخلاقهم ورقّة أفئدتهم، وكان لنا أصدقاء في طرابلس يزورننا كلَّ حين، حتَّى إن كثيراً من شباب القصير متزوّجون من نساء من طرابلس وبالعكس
القصير كانت من أوَّل المناطق الَّتي نادت بالثَّورة، وتخلصت من رقة جيش أسد وطائفته، كنا نظنُّ أنَّنا نجابه جيش بشار، وأن شعب لبنان وسوريا واحد، وخاصَّة أنّ جيش أسد عندما كان يحتلّ لبنان قد أذَّل شعبها واستعبده، وقتّل كثيراً من طوائفهم، وسرق بيوتهم واغتصب نساءهم وأفسد التَّعايش بين مختلف الطَّوائف والأديان، لم نكن نعلم أنَّ السِّياسة لا دين لها ولا مذهب، لقد جاءتنا عصابات مسلحة بأحدث الأسلحة وهاجمتنا بالدَّبابات والمدافع، وقد رأينا رجالاً آدميين مثلنا بالشَّكل فحسب، ولكنهم كما وصفتهم صديقي شهلا وحوش بل أبشع وأفتك من أن نصفهم بالوحوش
عندما دخلوا بيوتنا كانوا يطلبون بطاقاتنا الشَّخصية، فكلٌّ من اسمه عمر أو عثمان أو عائشة أوحفصة، أو حتَّى من يكرهون من الصَّحابة، كانوا يغرزون حرابهم في بطونهم فوراً دون أيّ سؤال وإن كان رضيعاً، قبل أن يدخلوا إلى

بيتي طلب مني زوجي أن أصعد إلى الغرفة العلوية وأختبئ بالخزانة وهو سيتصرَّف، أخذت ابني واختفيت خلف المتاع المعلَّق داخل الخزانة، وبعد أن دخل ثلاثة رجال اقتادوا زوجي أمامهم وهم يفتشون البيت وطبعاً لم يجدوا فيه سلاحاً كما كانوا يزعمون أنهم يفتشون عنه، وقد فتحوا الخزانة ومن لطف ربِّي بي وبصغيري لم ينتبهوا إلينا لأنهم وجدوا ضالتهم، فسرقوا الحليّة الذَّهبية والأموال الَّتي وجدوها، وأخرجوا زوجي وطلبوا منه أن يرفع يده للجدار وقاموا بإفراغ عشرات الرَّصاصات على أنحاء جسده، كنت أنظر من خلف نافذة الغرفة بعد أن خرجوا وكتمت صيحة كادت تفضحني، دخلوا بيت جيراننا وأخرجوا سبعة أولاد وأمهم وأباهم، فصبّوا عليهم الوقود وحرّقوهم، كم ضحكوا وهم يشاهدون الأطفال تتلوى من الوجع! ولم تترك النَّار تلك الأجساد الطَّاهرة حتَّى تفحّمت. مساءً وبعد أن عمَّ الظَّلام، أخذت صغيري وركضنا هاربين خارج المدينة، سرنا لساعات لا أعرف عددها حتَّى وصلت إلى الحدود اللبنانية وأنا في حالة يرثى لها من التَّعب والجوع والرُّعب، وهناك أوقفت سيّارة مارة وذهبت إلى طرابلس مكان أصدقائنا القدماء، وهذه قصَّة بسيطة عمّا حصل لأهل القصير وبيوتها وأراضيها

ومن يسكن القصير حالياً سأل شاهر؟

قد هُجِّر من نجا من أهلها وحلَّت مكانهم ميليشيات شيعية أفغانيّة ومن حزب الله اللبناني

وصارت أرضينا الزِّراعية مكاناً لزراعة الحشيش المخدر ومنطقتنا بؤرة للإتجار بها

الله أكبر! ماذا فعلنا حتَّى نلاقي هذا الذّل والمآسي! على كلِّ حال أنت وولدك وشهلا في حمايتنا، ستكونون معنا أينما حللنا أوارتحلنا

غزوات فاشلة

صباحاً استيقظ خالد مفزوعاً على صوت قرع شديد على الباب! أسرع ليرى من الطَّارق وما وراءه! فتحه بلهفة فرأى براء مبتسماً، وقد كان ما يزال منضوياً تحت راية جيش الإسلام
الله يعطينا خيرك ؛ خير؟ قال خالد وهو يشعر بأهمية الخبر:
دخلنا ساحة العباسيين و(كراجاتها) وأصبح شبابنا على تخوم (البانورما) ووصلوا جوبر بالقابون، وأصبحوا يشرفون على الطَّريق الرَّئيس بين دمشق وحلب، بمعنى (عضة كوساية) وسنصبح في قصر المهاجرين، ونخرج الفأر منه لندوسه بأحذيتنا، ألم أقل لك: إن نصر الله قريب! ولم يكن من الحكمة أن تتركنا؟

أجابه ببرود غير معتاد على مثل هذا النبأ الَّذي من المفروض أن يجعله طائراً في السَّماء يهزج بأناشيد النّصر: ولِمَ لمْ تذهب معهم؟
كانت أمي مريضة، وتعلم أنَّه ليس لها إلَّا أنا، فلم أستطع تركها، وكم كنت توّاقاً للمشاركة بمعركة النَّصر
هزّ رأسه وكأنَّه (أنشتاين) قائلًا: يا لك من مسكين وكلّنا مساكين!
تفاجأ براء بهذه الإجابة غير المتوقعة وهذا البرود الغريب.
فردَّ ممتعضاً: ألأنك تركت فصيلنا وعزفت عن الثَّورة لم تعد مهتماً بما يجري على الأرض! أم لأنَّ النَّوم لمّا يغادر عينيك بعد!؟
لا هذا ولا ذاك، فمنذ أكثر من عامين ونحن نطوّق الشَّام من برزة إلى القابون لجوبر لحي التَّضامن ولم يُسمح لنا بدخولها على الرَّغم أنَّ النَّصر كان أقرب إلينا من حبل الوريد، وتريد أن تقنعني الآن أنهم سمحوا لنا بإسقاط هذا السَّافل المنحط الَّذي لا يشبه الرّؤساء بأيٍّ من أفعاله! أؤكد لك يا صديقي أنها محرقة جديدة لشبابنا وستنتهي عمّا قريب

ردّ براء بضيق: أعطاك الله علمه أم جعلك الفراغ في حياتك تفتح الفنجان!
تبسّم وقد بدا القهر والأسى على وجهه وقال: علّمتني الأيام أنَّ الأحداث العظام لا تأتي من أفراد ضائعين ؛ من سلَّم رقبته ورقاب أهله لناس همهم السُّلطة والاقتصاد وجمع الثّروات لن يحصد إلَّا الخيبات، ونحن - يا أخي - وضعنا عنبنا في سلة الأغراب، فأخذوا العنب والسَّلة ومعهما أرواحنا، كذب من أوهمك أنَّهم سينصروننا، وأنَّ التحرر من سطوة آل أسد سيكون بدعم منهم، فهم لا يريدون الخير لنا، بل الشَّر كلّه بين أيديهم وفي أعمالهم
لم أعلم أنَّ بغضك لنا بلغ هذه الدَّرجة! وأنَّ تخاذلك وتركك ثورتنا الَّتي كان والداك أوَّل ضحاياها جعل منك شخصاً كارهاً أهله
غداً يا صاحبي سينجلي الغبار وتعرف أتحتك حصان أم حمار.
خرج براء وقد تملَّكه الغضب، فلم يكن متوقعاً في يوم ما أن يكون صديقه المخلص لمبادئه وثورته بهذا النُّكران والجحود، تركه وقد أقسم في نفسه إنَّه لن يكلّمه ثانية، فالظَّاهر أنَّ خالداً وقف ضد الثُّوار ولن يستغرب إذا شاهده بصفوف أعدائه من القتلة

لم تمضِ سويعات حتَّى تراجع الثُّوار إلى أماكنهم وتركوا المناطق المهمة الّتي سيطروا عليها وخسروا فيها دماء كثيرة من شباب صدقوا ماعاهدوا الله عليه
وفي اجتماع في غرفة قيادة الثّورة في المدينة صرخ براء بصوت خرج من داخله وكأنّه قنبلة ستنفجر في وجوه من يكلمهم: ماذا فعلتم؟ وكيف لكم أن تأمروا الشَّباب بالرّجوع بعد أن كنّا قاب قوسين أو أدنى من النَّصر أجابه أحد القادة المقاد من رقبته: رويدك أيها الشَّاب فلا عمرك ولامركزك يسمحان لك أن تحاسبنا

ودماء الأبطال الَّتي سُفحت في هذه المعركة الفاشلة أليس لها حساب ردَّ براء مستنكراً

هم ذهبوا إلى ربٍّ كريم حيث سيجدون الرَّحمة والمغفرة وجنات عرضها السَّموات والأرض، وسيلتقون بالحور العذارى وهم الآن أحياء عند ربِّهم يرزقون أجابه مترئّس الجلسة
ردَّ براء بحنق وغضب شديدين: وأنت ألا تحبُّ أن تكون رفيقاً للحور العين وتكون حيّاً في جنات عدن! أراك قد ترك الجنات العلا واخترت الدُّنيا الفانية الحقيرة

يا لك من أبله لا تعرف ألف باء السِّياسة! أيها الغبيّ نحن نشتغل سياسة مع الثَّورة ولسنا ثيران حقل نناطح كلَّ من نراه، والسِّياسة تقول لك: إن الوقت لم يحن بعد، فضع لسانك في فمك قبل أن أقطعه لك وأرميه للكلاب

أجابه براء: حقاً لم نخرج من زريبة أسد، وما أفكارك وكلامك الَّذي أتحفتنا بهما إلَّا خطاباً خشبياً كخطابات حزب البعث البائد، أبارك لك ولداعميك ترفّعكم للقيادة القطرية، وإن شاء الله نراكم في أعلى المستويات عندما تصالحون أسداً، وتجلسون تحت أقدامه تلعقون أوساخها، وخرج والدموع تمنعه من رؤية طريقه متوجهاً إلى بيت صديقه خالد الَّذي أخطأ الظَّن به، قرع الباب قرعاً خفيفاً في هذه المرّة فلم تعد قدماه تقويان على حمله، وشعر بفتور في جسمه وكأنَّه سيفقد الوعي

أدخله خالد فطلب منه أن يسمح له بالنوم، واستلقى على الأريكة القريبة وغطَّ في سبات عميق كان قد حُرم منه منذ طفولته

الفرار

في معسكر عمر يبدو أنَّ الأفق مسدود ؛ فهم يأكلون ويشربون وينامون، وتمر الأيام دون جديد
قال شادي لشاهر: سمعت من صديقي الجديد فواز أنَّ ابن عمه يعمل في تهريب البشر، ويستطيع أن يخرجنا من هذا السِّجن
وكيف ذلك؟
لن أطيل الشَّرح فقد دعوته اليوم إلينا وسيرشدنا إلى الطُرق المتاحة.
حسنُ، متى سيأتي؟
بعد ساعة.

مضت ساعة، فإذا بفواز قد حضر. وبعد أن صبّ شادي الشَّاي له، قال شاهر: دعونا ندخل بالموضوع
أجاب فواز: ابن عمي مُعين يعمل منذ أكثر من عشر سنين بتهريب البشر
وقد اتصل بي قبل أيام، وأعلمني أنَّ الطَّريق مفتوح لمن يريد أن يهرب من المعسكر، حتَّى إنَّ حرّاسه يتغافلون عن الفارّين لأجل أن يرحلوا عن اليونان إلى أيّ بلد يختارونه فيتخلصوا من عبئهم
وما الطَّرق المتاحة سأله شاهر؟
هناك طريق بالسَّفر المباشر بالطَّائرة ؛ وذلك بتزوير جوازات السّفر، وهو مكلف وغير مضمون، وطريق آخر بأن نركب في الصّندوق الخلفي للشَّاحنات الكبيرة، ويُغلق علينا مدة أسبوعين أو أكثر لنصل إلى ألمانيا
وهناك الطُّرق البَّرية، ونسيت أن أخبركم أنَّ هناك طريقة أخرى هي ركوب السُّفن المحملة للبضائع، وأيضاً سنحجز داخل إحدى الشّاحنات إلى أن نصل إلى إيطاليا ثمَّ نتابع برّاً

كلّها طرق صعبة إلَّا السَّفر بالطَّائرة وهو غير مضمون وخاصَّة أنَّ عمر معنا، وهو ما يزال لم يتعدَّ الثَّامنة عشرة
أرى أن نختار طريق البَّر من طرف مقدونيا، فالحدود كما سمعت أقصر وأفضل من الحدود البلغارية قال شاهر
وهذا رأي المهرب أجاب فواز. وسأل: كم عددكم؟

قال عمر ثلاثة.
ردَّ شادي بل نحن ستة ؛ لا تنسوا شهلا وحلا وابنها، فقد وعدناهم ألّا نتخلّى عنهم
وكيف سندفع المال لمعين سأل شاهر؟
في كلّ بلد نتخطّاه ندفع للمهرّب مبلغاً من المال.
متى علينا الفرار من هذا القبر الكبير سأل شاهر؟
بعد غد إن شئتم، ولكن علينا أن نرسل صوركم عبر الواتس ليتسنّى لمعين تزوير هويات لكم
انتظر قليلاً من الوقت إلى أن أعود.
خرج شاهر إلى مكان المرأتين فهو قريب منهما، وأخبرهما عمَّا يريدون فعله
قالت شهلا: والله لا نملك أيّ مال ؛ فنحن الآن كما أتينا إلى الدُّنيا.
لا تخشيا شيئاً، فقد وعدتكما أنَّي سأهتمّ بكم وأنا أحمل ما يكفينا من مال
بعد غدٍ كونا على استعداد تام في وقت مبكر، فمتى أرسل لنا المهرب إشارة انطلقنا على بركة الله
كما تريد فأنت أخونا، ومن الآن أنت مسؤول عنّا أمام الله.
ناموا جميعهم إلَّا عمر ؛ فكم شعر بالألم لأنَّه سيترك أخته وحيدة في هذا البحر القاسي الَّذي لم يرحم ضعفه، ولم يترك له أخته كما فعل نظام أسد، بكى بصوت خفيض كي لا يوقظ ابنَي عمه ولا يشعرا بقلّة حيلته
رحل اليوم بتثاقل كما ترحل الأيام في هذا المعسكر، وفي الصَّباح الباكر

أتـى فـواز طالـباً منهـم أن ينطلقـوا
مـرّوا بـحلا وشـهلا واصطحبوهمـا والطّفـل، وتسـلّلوا مـن السّـلك الشّـائك، مشـوا ربـع سـاعة، فـإذا المُهـرّب مُعيـن ينتظرهـم وبيـده بطاقـات شـخصية لـكلّ واحد دولـة مختلفـة. سـاروا في طريـق جبلـي لسـاعات، وكانـوا يتناوبـون على حمـل الصَّغيـر فالظَّاهـر سـيكون عبـئاً عليهـم، ولكـن ليـس باليـد حيلـة، فلا يمكـن تركـه
صعـدوا جبـالاً ونزلـوا سـهولاً ولـم يجـدوا أثـراً يـدلّ على أنَّ هنـاك مـن داس على أرضهـا إن كان إنسـاناً أو حيـواناً
توقّف شاهر سائلاً معيناً: أمتأكد أنَّنا نسير في الطَّريق الصَّحيح؟
لست متأكداً ؛ فأنا أوَّل مرَّة أهرِّب أناساً من هذه المنطقة.
قال شاهر: علينا الرُّجوع من المكان الذي أتينا منه، وتغيير الاتجاه.
أخذوا برأي شاهر ؛ فكلّهم وثقوا أن الطَّريق بِكر، وعادوا من حيث أتوا.
وكان الليل قد بدأ ينغمس بالنَّهار.

طلبت المرأتان استراحة فقد بلغ التَّعب منهما.
جلسـوا في منطقـة مفتوحـة نصـف سـاعة ثـمَّ تابعـوا السَّـير، ومـن حسـن حظهـم أنهـم وصلـوا الطَّريـق العـام ورأوا مركبـات تسـير فيـه، مشـوا بجانبـه إلـى أن طلـع الفجـر، فـرأوا مـن بعيد نقطـة للشـرطة اليونانيـة أخفـوا بطاقاتهم المـزوَّرة، وسـلّموا أنفسـهم لرجال الشّـرطة، فأدخلوهم سـجناً بسـيطاً. لـم يُصدّق عمـر أنَّـه سـيتمدّد على فـراش ؛ وإن كان وسـخاً وصُلبـاً، فالليلـة الماضيـة كانـت مرهقـة طويلـة وبـاردة أيـضاً، ولـم يكـفَّ الصَّغيـر معتـز بـن حلا عـن البـكاء طيلـة الطَّريـق، حـقاً هـي رحلـة قاسـية ومـا زالـوا في بدايتهـا، وعليهـم قطـع أكثـر مـن ثلاثـة آلاف كيلومتـر، وهنـاك حـدود وحـراس لهـا، أغلـق عينيـه وسـلّم روحه لربِّهـا وغـطَّ في نـوم عميـق
مضـت ثلاثـة أيـام على احتجازهـم في قسـم الشّـرطة، في اليـوم الرَّابـع أخـذوا بصماتهـم وأفرجـوا عنهـم بعـد أن أعطوهـم إقامـة مؤقتـة على أرض اليونـان تخوّلهـم بالانتقـال حيثمـا شـاؤوا

عندما خرجوا من قسم الشّرطة كان مُعين ينتظرهم وبيده بطاقات سفر على ظهر الباخرة إلى العاصمة أثينا، ومن هناك سينطلقون إلى الحدود المقدونية

بعد عدة ساعات صعدوا إلى السَّفينة وكان اسمها (بلو ستار) أي النَّجم الأزرق، وقد تلاشى الخوف لأنهم حصلوا على أوراق رسمية
قال شاهر لشادي عندما رأى اسم السَّفينة: على ما يبدو أنَّنا سنشاهد نجوم الليل في النَّهار وهذا أوَّلها، ضحك الاثنان، وكم استغربا من نفسيهما ؛ فمنذ مدة طويلة لم يضحكا! حتَّى إنهما نسيا آخر تاريخ تبسّما فيه
انطلقت الباخرة وعاد القلق إلى قلب عمر، إذ لم ينس بعد حادثة أخته وتقلّب أحوال البحر وهيجانه وغدره
استمرّت الرِّحلة يوماً دون أيَّة معوقات ووصلوا إلى أثينا، وهناك أخذهم مُعين إلى بيت في شارع فكتوريا في قلب العاصمة أثينا، وما إن وصلوا حتَّى أسرعوا إلى الحمام ليزيلوا عنهم أوساخ السِّجن

حقيقة على الرَّغم من الفكرة السَّيئة الَّتي أخذوها عن أوروبا منذ أن قُلب القارب وعن المعاملة السَّيئة الَّتي تلقّوها من رجال خفر السَّواحل، إلَّا أنَّ الفرق بادٍ للعيان بين عاصمة بلادهم دمشق وبين أثينا
قال عمر لشاهر: أترى هذا التَّنظيم الرَّائع للسير والشَّوارع النَّظيفة العريضة الَّتي لم أشاهد مثيلاتها في بلدي؟

نعم، أثينا مدينة جميلة ونظيفة ومنظّمة.
وما الَّذي ينقصنا نحن أن نكون مثلهم ردَّ شادي متسائلاً؟

يا أخي، مع أنَّ أثينا جميلة لكنهم يفقدون أشياء أكثر جمالاً ورقيّاً!
سأل عمر متلهّفاً: مثل ماذا؟
إنهم لا يملكون الحزب القائد وليس لديهم الأب الملهم باني البلد الحديث،

ولا يعرفـون معنـى المقاومـة والممانعـة والصّمـود والتَّصـدي، بمعنـى أنهـم مسـاكين يعيشـون في هـذه الحيـاة برفاهيـة وسـعادة دون أن يكـون ظـل الرَّئيـس الَّـذي لـم تنجـب الأمّهـات مثلـه مخيّـماً عليهـم

ضحكـوا هـذه المـرَّة أيـضاً مـلء أعماقهـم، ثـمَّ توقّـف شـادي قـائلاً: اللـه يعطينـا خيـر هـذا الضَّحـك إن ضحكـت ثالثـةً فسـأذهب إلـى الطَّبيـب ليكشـف علـيَّ

تابعـوا ابتسـاماتهم وقـد شـعروا بسـعادة غامـرة ؛ لأنهـم أحسّـوا أنَّ حياتهـم بـدأت تعـود مـن جديـد بعـد أن فقـدوا كلّ أمـل في أن يسـتمروا فيهـا

دولة إدلب

هل سمعتم الأخبار الطَّيبة؟ قال حاتم عندما كان عثمان وبراء وخالد جالسين في بيت الأخير، فقد صار مقرّاً لهم باعتباره لا يسكنه إلَّا خالد بعد رحيل كلّ أفراد أسرته
أجل، قال عثمان: اليوم ظهراً بدأ ثوار إدلب الهجوم على جيش الطَّاغية المتحصّن بين المدنيين وقد أخذهم دروعاً بشرية له
ردَّ براء: صحيح فأنا أتواصل مع صفوان، وهو صديقي من إدلب كنت ألتقيه في المباريات الرِّياضية المدرسية عندما كنت ألعب كرة القدم، وهو من الثُّوار ويضعني بالصُّورة في كلّ ساعة

وهل يكفي أن تتحرّر إدلب! وهل تموت الأفعى إذا قطع جزء منها في أقصى حدود سوريا! أنا مع تحرير أيَّة منطقة من بلدي، واعتبرها مكسباً للثورة، ولكنّي مع الأسف بعد أنْ صدمتني الخيانات والتَّلاعبات الدُّولية والعربية بعمق ثورتنا لم أعد أثق أو أتفاءل بأيِّ حدث
لا تكن متشائماً قال حاتم، بالرَّغم من كثرة الأجندات الَّتي أوصلتنا إلى وضع متأزّم لكنَّنا -بإذن الله- سندوس على رأس بشار وعلى كلِّ من خان وقبض ثمن خيانته، وهم معروفون، والحساب سيأتي في وقته، لنأخذ حقّنا من رقابهم قبل رقبة الحقير السَّاكن في قصر المهاجرين
انتظروا، سأسأل صفوان قال براء وأردف: وأعرف ما يدور في إدلب فالوقت قارب على غروب الشَّمس وعلى ما أعتقد أنَّ المعارك توقفت: مرحباً صفوان، ما الأخبار عندكم؟
سمعوا جميعهم صوتاً يرقص من السَّعادة ؛ وكأنَّ صاحبه في يوم عرسه.
أهلًا براء، الوضع على أفضل حال، لن تصدّق كيف أنَّنا نقتحم حواجز النِّظام، وكيف يفرّون منها ويتركون دبّاباتهم ودشمهم الَّتي كانت تحميهم في

الماضي! لقد اقتحمنا أكثر من حاجز ولم يبقَ لنا إلَّا القليل، وسنحرر مدينتنا من هؤلاء المجرمين المحتلين أحياءنا وشوارعنا الغالية
أبهذه السُّرعة أجابه براء! وتابع: لمَ أكن أتوقّع أنكم خلال يومين ستطردون جيش أبي شحاطة من إدلب
لو تراهم كيف يفرّون لأثلجت صدرك، فجيش أسد نمر من ورق ؛ ولولا حزب الله والميليشيات الأفغانية المجرمة وإيران المجوسية وبوتين الجزّار وآلته العسكرية لكنّا حرّرنا سورية بكلِّ أراضيها خلال أسبوع، فجيش متهالك مرتش لا يملك إلَّا عقيدة السَّرقة والاحتيال والرّشوة لن يستطيع أن يقف أمام إرادة شعب، أستودعك الله وغداً -إن شاء الله- سأزفّ إليك خبر تحرير إدلب، فنحن مَن صفعنا حافظ الوحش بالصَّرامي على وجهه منذ أن استلم الحكم، وسنصفع ابنه الطَّاغية ونرجعه هو وذريته وطائفته إلى وكورهم في جبل النُّصيرية عبيداً لنا كما كانوا
أنهى براء المكالمة وكأنَّ أحدهم أهدى له كنزاً، وقال: هذا أول الغيث يارفاق، التَّحرير مستمر وسيصل ثوار سوريا إلينا قريباً
رغم سعادة خالد الغامرة الَّتي شعر بها إلَّا أنَّ الشَّك لم يغادر قلبه تجاه كلُّ الأحداث الجديدة، وقد شعروا جميعهم بما يدور في خلده
صباحاً اجتمع الصِّحاب باكراً ليتابعوا ماتوقّفوا عنده البارحة.
اتّصل براء ثانية بصفوان الَّذي قال له فوراً وصوته يغرّد من الفرح: لقد طردنا جيش القاتل أسد من إدلب المدينة وهم يجرّون ذيول الخيبة
أتقسم بالله إنَّ ما سمعته منك حقيقيٌّ؟

أخَبِرتني كاذباً أو مازحاً قبل اليوم؟
لا، ولكن ما تقوله لا يصدقه عقل، البارحة بدأ هجومكم، واليوم تخبرني أنَّكم دحرتم مغول العصر
أقسم بالله إني أقول الحقيقة، فقد هربوا تحت جنح الليل كفئران حقل خوفاً من أن تدوسهم جحافل الفاتحين، وأخذوا مخبريهم وزبانيتهم وهم الآن معتصمون في مدينة أريحا، حتَّى معسكر الطلائع الَّذي كانت تظنه

قـوات أسـد مـكاناً حصيـناً لهـا، و كانـت تقصـف منـه الأماكـن الآمنـة في ريـف إدلـب بالمدفعيـة والصَّواريـخ المتوسـطة حررنـاه، والآن نطاردهـم، ووصـل ثوارنـا إلـى منطقـة محمبـل، وقـد أقسـمت جمـوع الثَّـوار إنهـا لـن تـدع أيّاً مـن جنـود أسـد وزبانيتـه تطـأ تـراب إدلـب ثانيـة، فهـذه المدينـة غسـلت أدرانهـا إلـى الأبـد

أبـارك لكـم التحريـر، وأتمنـى لكـم السَّلامـة، وأدعـو بالرَّحمـة لشـهدائكم، ولكـن قبـل أن أنهـي المكالمـة، هـل خسـرتم كثيـراً مـن الثُّـوار؟
ارتقـى ثمانـون بـطلاً ؛ وهـو عـدد قليـل على تحريـر مدينـة مـع أنَّ ظفـر أيّ واحـد منهـم يسـاوي رأس أسـد وذريتـه

أرجـو مـن اللـه أن يُرينـا النَّصـر الَّـذي أراكمـوه، وأن نحـرر دمشـق كمـا حررتـم مدينتكـم، وأن نلتقـي معكـم في قصـر المهاجريـن وقـد دسـنا على رأس بشـار وحلفائـه وأذنابـه، سـأتصل بكـم لاحـقاً لأسـمع منـك كلَّ جديـد

بعـد أن أغلـق الخـط نظـر في وجـوه الصّحبـة فـرأى ضيـاء النَّصـر يشـعّ منهـم، وشـاهد التَّفـاؤل وكأنَّـه يقـول: ألا إن نصـر قريـب ألا إن نصـر اللـه آت، حتَّـى إنَّ وجـه خالـد أشـرق فـرحاً رغـم كلّ هواجسـه وقلقـه

متابعة الفرار

اِستعد شاهر وأخوه وعمر وشهلا وحلا وفواز والمهرّب مُعين للانطلاق إلى حدود مقدونيا، فالشِّتاء القارس آتٍ، وسوف تُقطع طرقُ التَّهريب فيه، فالثّلوج ستغطيها وعليهم الإسراع، وصلوا إلى مدينة صغيرة اسمها سولونيك، جلسوا في بيت مكتظّ بالمهاجرين، وانتظروا حتَّى حلّ الظَّلام، فقطعوا الحدود اليونانية ودخلوا الحدود المقدونية، في الواقع الحدود بين الدّول الأوروبية - إن كانت تابعة للاتحاد الأوروبي أو خارجه عنه - سهلة العبور لعدم تشديد الحراسة عليها، وليست كحدود وطننا العربي محميّة بآلاف الحراس، ومن يتجرأ على العبور من خلالها فكأنه ارتكب الموبقات كلَّها، وليس له إلَّا القتل أو السِّجن إلى ما شاء الله، وتهمته أنَّه اخترق السَّيادة وداس على المحرمات، فأرض العرب على الرَّغم من أنَّ العرب يعيشون عليها، لكن لاخلاق لهم فيها، فهم كالعبيد ليس لهم إلَّا فتات بالكاد يسدّ أرماقهم

قال مُعين: علينا أن نصل إلى ذلك المرتفع، ونراقب السَّهل ثمَّ نركض نزولاً إلى الغابة القريبة، ولكن حذارِ ؛ ففي الجهة المقابلة نقطة حراسة، ويجب أن نركض بأسرع ما نستطيع
ردَّت حلا بصوت خفيض: ولكني لن أستطيع أن أجاريكم بالرَّكض، وخاصَّة أن طفلي معي

أجابها شاهر: سوف أحمله على ظهري فلا تقلقي، ما عليك أنت وشهلا إلَّا أن تركضا بكلِّ قوة فإذا أمسكت الشّرطة أيّاً منكما فسوف تتعطل العملية علينا جميعاً
قالت شهلا: لن نعطلكم وسنسبقكم إلى التَّلة.

عندما أعطى مُعين إشارة البدء اِندفعوا جميعهم إلى التَّلة، ركضوا وكأنهم بحلبة سباق وكأنَّ الفائز سيحصل على جائزة العمر
وصلوا وقد تقطّع الأنفاس وضاقت الصُّدور، ارتموا جميعهم على ظهر التَّلة، وما إن استردوا أنفاسهم حتَّى قال مُعين: علينا متابعة الرَّكض إلى الغابة، ولكن احرصوا فطريقها مكشوف وعلينا أن نسرع ولا يقف أحدنا لأيِّ سبب كان

قال شادي لشاهر: أعطني الصَّغير لترتاح من حمله قليلاً.
لا يا أخي، أنا أشدّ عوداً منك، وأقدر على الجري بهذا الوزن الإضافي أجابه شاهر
قال معين: هيئوا أنفسكم، علينا ترك المكان، عندما أعدّ للثلاثة ننطلق كرجل واحد
صاح: ثلاثة، فانتفضوا وركضوا باتجاه الغابة، سمعوا أصواتاً تصرخ بهم، لم يعلموا أهم من الفلاحين أم العسكر، لم يلتف أحد منهم واستمروا إلى أن وصلوا الغابة الكثيفة بر الأمان
قال مُعين: ضعوا اليد اليمنى على أعينكم لتحميكم من أغصان الشَّجر ولنمسك بأيدي بعضنا باليَّد اليُّسرى، فالظَّلام دامس والغابة كثيفة تمنع وصول ضوء القمر بل ونور الشَّمس أيضاً
قال عمر لفواز: أتعرف لو أنَّا كنّا نقطع حدود أيٍّ من دولنا العربية وشاهدنا العسكر لرمونا بالرَّصاص! ولظهرت جثثنا في اليوم التَّالي على شاشات التِّلفاز، وقالوا عنّا: إنَّنا إرهابيون كنّا نهمّ بتفجير المساجد والكنائس أو ربما كنا نخطّط لعملية اغتيال لسيادة الحاكم

أجل، أتعلم ماذا يعني شعار وطننا العربي وحدة حرية اشتراكية؟
ردَّ فواز: لا أعلم، والله.
وحدة: تعني أن يتوحّد حكام العرب ضد شعوبهم، وحرية: تعني أنَّ للحكام حريَّة ليفعلوا بنا ما يشاؤون، واشتراكية: هي أن يشاركونا بأرزاقنا وحتَّى

بهـذه اللقيمـات الَّتـي تدخـل جوفنـا
ضحك الاثنان وتابعا السّير.
بعـد مضـيّ سـاعة شـعر شـاهر بخـدر في كتفيـه فالطَّفـل عمـره ثلاثـة أعـوام ووزنـه ليـس بالقليـل
فقال: دعونا نسترح قليلًا، فلم أعد أستطيع المتابعة.
ردَّ مُعين: لا يمكن أن نقف علينا أن نقطع الغابة.
أجابه عمر: سأحمل عنك الصَّغير.

قال شادي: سنحمله بالتَّتابع إلى أن نقطع الغابة وبعدها نستريح.
سـاروا طيلـة الليـل حتَّـى خـارت القـوى وسـقطت شـهلا وقـد كانـت تبكـي مـن شـدة الإعيـاء وألـم قدميهـا، قالـت: أرجوكـم دعونـي وارحلـوا، فلـن أسـتطيع المضـي علـى هـذا النّحـو مـن السَّـير، إمّـا أن نسـتريح أو اذهبـوا بدونـي
قـال شـاهر: كيـف نتـركك في هـذه الغابـة المنعزلـة عـن العالـم! أجُننـتِ! لـن نرحـل بدونـك واسـتدار نحـو المهـرب وطلـب منـه الاسـتراحة
ردَّ مُعيـن: علينـا أن نقطـع الغابـة لـيلًا، وإذا انجلـت العتمـة ولـم نصـل إلـى الطَّـرف المقابـل فسـوف يُلقـى القبـض علينـا، ولـن نسـتطيع الوصـول إلـى هدفنـا

فليكـن مـا يكـون ؛ لـن أتـرك أختـي شـهلا في هـذا المـكان الموحـش لتنهشـها الذِّئاب
أُسقِط في يد معين فقد كان لشاهر قوة شخصية وحزم.

اسـتراحوا لمـدة سـاعة، ثـمَّ تابعـوا المسـير، وصـاروا كلّمـا قطعوا مسـافة جلسـوا للاسـتراحة قلـيلًا، إلـى أن قطعـوا الغابـة ووصلـوا الـى أرض مفتوحـة، ولكـن مـع الأسـف قـال مُعيـن: بـدأ الصُّبـح يسـفر، وحظوظنـا بقطـع هـذه المنطقـة أصبحـت ضئيلـة، إمـا أن ننتظـر ليحـلَّ الـظَّلام أو نخاطـر بالرَّكـض إلـى الاتجـاه الآخـر

كان رأي الأغلبيـة أنَّ عليهـم الانـطلاق فلـن يجلسـوا نهـاراً كاملاً في هـذه الغابـة الموحشة
ركضـوا كمـا فعلـوا سـابقاً بـكلِّ قـوة ولكـن لسـوء حظهـم كان قـد شـاهدهم رجـال الشّـرطة المقدونيـة وألقـوا القبـض عليهـم

ماذا سيفعلون بنا سأل عمر مُعيناً؟
والله لا أعرف قد يسجنوننا ثمَّ يضعوننا في مخيم للاجئين.
ولكـن لحسـن طالعهـم أركبوهـم بسـيارتين وأعادوهـم إلـى نقطـة الانـطلاق على الحـدود اليونانيـة، وكأنـك - يـا أبـا زيـد - مـا غزيـت، ضـاع الجهـد المبـذول هـدراً والسَّـاعات الطَّويلـة الَّتـي قضوهـا سـيراً على الأقـدام
أوصلوهـم إلـى محطـة حـافلات وأجبروهـم على شـراء تذاكـر لأقـرب مدينـة يونانيـة ورحلـوا

وقفوا جميعهم وقد أُحبطوا بعد هذا الفشل الذَّريع.
سأل شاهر مّعيناً: ألا يوجد طريق آخر؟
أجل، ولكن فيه جسر قديم آيل للسقوط، وأخاف المرور عليه.
سنجرّب حظّنا ولن نترك أيَّة فرصة إلَّا ونقتنصها.

دعونـا نعُـد فـوراً إلـى قلـب مقدونيـا ولنـرَ أيّنـا أذكـى وأقـوى شـكيمة نحـن - العـرب أم المقدونيبـن - فقـد كان شـاهر شـاباً واثـقاً عنيـداً لـذا قـرّر أن يقـود الرِّحلـة بنفسـه ويكـون مُعيـن مسـاعداً لـه
وافقـوا جميعهـم رغـم إجهادهـم وحاجتهـم للنـوم، على أمـل أن يتحسـن الوضـع ويصلـوا إلـى غايتهـم

أبطال مجهولون

أصبحت الاجتماعات دورية ويومية في بيت خالد بين الأصدقاء الأربعة ؛ فهم يتابعون التَّطورات الميدانية على شاشة التِّلفاز، والأخبار الدَّقيقة بتواصل براء مع صديقه صفوان

وفي اتصال جديد قال براء: طمئني إلى أين وصل التَّحرير يا صفوان؟

حرّرْنا معسكر الشَّبيبة، وغنمنا كلَّ ما فيه من سلاح وعتاد، وأذقنا مَن فيه الموت الزؤام، ولو ترى التّرسانة الضَّخمة من الأسلحة والقذائف المدفعية الَّتي كانت موجودة في المعسكر لاندهشت! وكأنَّ النِّظام كان يحشد علينا منذ عقود! ويخزّن الأسلحة لقمع الشَّعب وقصف المدنيين العزّل، ولو ترى كمّ القاذورات الَّتي كان يعيش فيها جنود أسد! ورداءة الطَّعام الَّذي يلتهمونه وشحّه! ولو شممت رائحة جيفهم لهربت مبتعداً عشرات الكيلومترات! حقاً القذارة والوساخة تلائم بعضها بعضاً. وقد حررنا مدينة أريحا، ومناطقها وجبلها وحررنا مدينة جسر الشُّغور قبلها، ودحرنا العدو إلى مناطق اللاذقية، بمعنى أنّ إدلب وريفها الكبير أصبحا ملكاً لأهلها، وفرَّ جيش المحتل وقطعانه الطَّائفيّة منها

هل كانت المقاومة شرسه سأله براء؟

نعم، للغاية، فقد حوصروا في معسكراتهم، وصاروا يدافعون عن أرواحهم ؛ فقد علموا أنَّ خسارتهم تعني موتهم، وتابع: منذ يومين تحصّنوا في معمل السُّكر على أطراف مدينة جسر الشغور، وهذا المعمل كانت تستخدمه ميليشيا أسد مكاناً للتعذيب، ولإهانة أهلنا وحرائرهم، أتعلم - يا براء - أنَّ الضُّباط النُّصيريين - وهم الأكثرية في الجيش - كان أهلوهم يبيعون إناثهم إماءً في سوق النّخاسة لأهل الإسلام

صار الضَّابط الوغد الحقير يأمرهنَّ بخلع ملابسهنَّ وتقديم الخمور له ولبقية الضُّباط والعناصر، ثمَّ يغتصب هو ومن معه هؤلاء البنات العذارى والنِّساء، ومن ترفض الانصياع لأوامره يقوم بإطفاء لفافات التبغ في عينيها وجسمها، ثمَّ يرميها بالرَّصاص، وقد داس الثَّوار على رقبته وصلبوه على مدخل المعمل، وفي المشفى الَّذي كان يستعمله الأمن العسكري على أطراف مدينة الجسر فكما تعلم أنَّ نظام أسد جيَّر كلّ المنشآت العامة لتكون له منصة انطلاق، ليثخن في شعبنا ويقتل منهم كلّ من يراه في طريقه، تحصَّنت قوة منهم رافضة الاستسلام، ففخّخ الثَّوار المبنى وفجروه وقتلوا العشرات من المجرمين المختبئين داخله، إنها معارك ردَّ الشَّرف وكسر رأس المحتل النُّصيري وأزلامه،طيلة هذا الاتصال والشَّباب الأربعة ينصتون وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير

سأل براء: ولمن الحكم الآن في ادلب؟

جيش الفتح الَّذي تشكّل من سبع فصائل اتّفقت على حكم ادلب ووضع محافظاً لها، والأمور تسير على مايُرام

ألَّا يقصفكم الطَّيران الحربي؟

لم يتوقف طيران أسد عن قصف المدنيين قبل التَّحرير وبعده، فهو مستمر بارتكاب المجزرة تلو الأخرى، ولكنَّنا شعب صابر توّاق للتحرر من قيود أسد الَّتي أدمتنا طيلة السَّنوات الفائتة

وسأقول لك قصة لأجل التَّرفيه: منذ الأسبوع الفائت وبعد أن طردْنا المحتل من معسكر الطَّلائع إلى تخوم مدينة أريحا، خرجتُ مع بعض ثوارنا لنرابط على الحدود خشية تقدّم قطعان النَّظام مرَّة أخرى باتجاه ادلب، وكان الجو ماطراً عاصفاً والليل حالك السَّواد، والسَّماء خالية من النُّجوم، والقمر كأنَّه أقسم ألَّا يبزغ إلَّا عندما نزفُّ له خبر تحرير كلّ شبر من مدينتنا، كانت هناك حفر فرديّة أُعدت مسبقاً، ومع هطول المطر بغزارة امتلأت الحفر بالمياه حتَّى الجمام، وممَّا زاد الأمر تعقيداً، أنَّ الفئران المهزومة أعني جنود العصابة الأسدية كانوا في أشدَّ حالات الذّعر من هجومنا المباغت عليهم،

فكانوا يطلقون الرَّصاص باستمرار من مدافعهم الرّشاشة في كلِّ الاتجاهات دون تصويب، وكأنَّهم يملكون مستودع ذخيرة متنقل، بقيت في حفرتي الفردية منتظراً طلوع الفجر وثيابي تسيل بالماء حتَّى إني لم أعد أشعر بأطرافي من البرد، في هذه اللحظات سمعت صوتاً ليس ببعيد عني يختفي حيناً ويعود أحياناً، توجّست منه خيفة، وبدأت أقرأ ما أحفظه من كتاب الله، فقد شعرت أنَّ المنيّة قادمة، والمواجهة مع جيش أبي شحاطة ليست متكافئة، فهم مدجّجون بالسَّلاح الثَّقيل وبمختلف القذائف، وأنا - العبد الفقير إلى الله ومن معي لا نملك إلا السِّلاح الفردي وبعض مخازن الرَّصاص - بقيت هنيهة لا أدري ما عليَّ فعله! وأخيراً عزمت على الخروج من الحفرة، وجهّزت سلاحي وزحفت رويداً رويداً إلى مصدر الصَّوت، وكلَّما اقتربت كان يعلو وتزداد دقّات قلبي حتَّى ظننت أنَّ الأعداء سمعوها ؛ بصراحة الرُّوح غالية، وما إن وصلت إلى مصدر الصَّوت حتَّى وجدت أحد أبطالنا وقد غطَّ في نوم عميق رغم الطِّين والبّرد والماء المنهمر، وشخيره يعلو حتَّى اعتقدت أنَّه استفزّ جنود أسد وأزعجهم فصبّوا جام غضبهم ونيرانهم علينا، لا أعلم ؛ أضحك من نفسي أم أفتخر بهذا الشُّجاع الَّذي وضع دماءه على كفّه وسلَّم أمره لله! وعندما أيقظته سأل بكلِّ ثقة: هل هرب الجيش؟

ضحكوا كلّهم على هذا الموقف الغريب والشُّجاع.
فردَّ عليه براء: حماكم الله ورعاكم من كلِّ سوء ؛ رفعتم رؤوسنا وبيَّضتم وجوهنا، كم النَّصر مبهج! وكم تمنَّيت لو أنَّي ولدت بإدلب، فكنت معكم في هذه الأيام المباركة الَّتي ستكتب في تاريخ سورية الحديث بمداد من ذهب
أجابه صفوان مداعباً: سنعطيك تأشيرة دخول لإدلب، ثمَّ نمنحك الجنسية، ولكن عليك أن تحبَّ الشّعيبات أولاً ؛ فهي الأكلة المشهورة بإدلب
تابعوا جميعاً ضحكهم، وبعد أن أنهى المكالمة قال عثمان: متى سنفرح كما فرح أهل إدلب! ومتى سنتحرر نحن أيضاً ويرجع قرار بلدنا لأبنائه

عندما تصفو النّفوس، ويخرج الخبث من بيننا، ونحاسب سارقي أحلامنا من بني جلدتنا، حينها سننتصر، وأيُّ نصر سيكون
حقيقة أنَّ خالداً صار حاقداً على كثير من القادة ممَّن باعوا أنفسهم للشيطان، ووضعوا أيديهم مع حكام دول متسلّطين، معروف عنهم أنهم ضدّ تحرّر أيّة منطقة خوفاً على لحاهم من الحلاقة
في هذه الأثناء كانت عيون العالم تراقب بحذر ما يجري على الأرض السُّورية وأصابعهم تلعب بمجرياتها، تحاول أن تقف حاجزاً أمام المدّ الشَّعبي وتضع المخططات لإخماده

قال عثمان للمجتمعين: أسمعتم بالخطة الأمريكية الجديدة؟
أجابه حاتم: نعم، ولكن لم تصلنا تفاصيلها.
ردَّ خالد المتابع للوضع السِّياسي: الخطة هي تقسيم سوريا مع استمرار وجود النّظام وتشكيل إدارات تتمتع بحكم ذاتي للحد من النُّفوذ الرّوسي الإيراني
هل اطّلعت على تفاصيلها سأل براء؟
نعم ؛ فأمريكا تسعى لإنشاء ثلاث مناطق آمنة في الأراضي السّورية: واحدة للعلويين تمتد على طول السَّاحل حتَّى الحدود اللبنانية، ومنطقة للأكراد في الشَّمال (تضمن واشنطن ألّا تشكّل خطراً على تركيا). ومنطقتين للمعارضة المعتدلة في حلب وما حولها، وأخرى في درعا وما حولها، ومنطقة حرب إن لم ينسحب تنظيم داعش أو يهزم فيها، على أن تتولاها قوى دولية
الاتفاق على صيغة حكم لامركزي لسوريا، وتُسيّر المناطق شؤونها، لا سيّما في الرَّقة التي ستكون تحت إشراف دَوليّ بعد طرد داعش، ثمَّ البدء بمفاوضات بين كلّ القوى المحلية والإقليمية تمهِّد لإصلاح سياسي... وتضع الخطة في الاعتبار عدم التَّوافق على رئيس واحد لسوريا أو على حدود هذه المناطق الآمنة، فتقترح تأجيل عملية الانتقال السِّياسي الشَّامل إلى حين التَّوصل إلى اتفاق شامل بين مختلف الأطياف السُّورية

خرجنا في ثورة لنحرر أرضنا ؛ فإذا بأرضنا تتمزق وتنهشها كلاب العالم وكأنَّ هذه القطعان لم تذق طعاماً منذ الأزل! قال عثمان وقد احمرّ وجهه حتَّى بدا كشوندرة مسلوقة وظهر عليه ضيق شديد
سأل حاتم خالداً: أجادّة أمريكا في هذا الأمر أم أنها تلعب بذيلها كما تفعل دائماً لتكسب الوقت وتقتل أهل الإسلام أينما وجدوا؟
يبدو واضحاً عدم جدية أمريكا في محاربة داعش وسماحها للتنظيم بالتَّحرك بحريّة في المناطق الَّتي يسيطر عليها، وإصرار واشنطن على تدريب قوات سورية الدّيموقراطية ووحدات الحماية الكردية ووحدات حماية المرأة وجيش سورية الجديد وكلَّها مجموعات تتلقى الدَّعم الأمريكي: تسليحاً وتدريباً وتخطيطاً وتوجيهاً سياسياً... وقد أوجدت أمريكا هذه التَّنظيمات ليكون لها الأمر المباشر والقول الفصل داخل سوريا وتكون اللاعب الأساسي فيها، وحتَّى تكون جاهزة للتحرك في مواجهة دمشق في أيَّة لحظة، أو إفشال محاولاتها السَّيطرة على المناطق الآمنة وإضعاف الحكم المركزي، سواء بقي الأسد أو لم يبق ليسهل تنفيذ الخطة

يا أخي، ابتلينا بجيش فاسد ورئيس مجرم شبه أبله، وبعالم غادر منافق وكلُّهم يتبجحون بالإنسانية ولا يطبقونها علينا، فأمهاتهم لم ترضعهم قطرة أخلاق فلا خير فيهم، ولاكرامة لديهم

كارثة

أعـاد شـاهر وأصحابـه الكـرَّة فعادوا إلـى مكانهـم السَّـابق، ولكنهم غيَّـروا الطَّريق القديـم إلـى طريـق أشـدّ وعـورة وأكثـر خطـراً لصعوبـة تضاريسـه، وتناوبـوا على حمـل الصَّغيـر وهـم يصعـدون المرتفعـات ويهبطـون إلـى الوديـان، والجـو قـد صـار أكثـر بـرودة مـع اقتـراب الشِّـتاء، وكان يخشـون أن تفاجئهـم حيوانـات مفترسـة كالذئـاب والضِّبـاع، وهـذا مـا جعلهـم متلاصقيـن في سـيرهم، وكانـت المرأتـان والصَّغيـر عبـئاً عليهـم، فقـد كانتـا ثقيلتـي الحركـة وكلّمـا قطعـوا مسـافة أطـول ازداد بـطء المرأتيـن

وبعـد سـاعات مرهقـة وصلـوا إلـى جسـر خشـبي قديـم معلّـق بيـن جبليـن، يمـرُّ تحتـه نهـر سـريع الجريـان، ينتظـر بشـغف أيَّ هـاوٍ إليـه ليغرقـه دون رأفـة عندمـا رأت شـهلا هـذا المنظـر كاد يُغمـى عليهـا، فقـد أقسـمت إنَّهـا لـن تمـرَّ عبـر هـذا الجسـر المهتـرئ وسـتعود وحيـدة إلـى المـكان الَّـذي أتـت منـه توقّفـوا جميعهـم متحيّريـن، مـاذا سـيفعلون! فهـم لـن يتركـوا شـهلا ولكنهـم لـن يتخلـوا عـن حلمهـم الَّـذي ضحـوا لأجلـه كثيـراً

قالـت حلا يـا شـهلا: أنـا أخاطـر بصغيـري قبـل أن أخاطـر بنفسـي، أرجـوك ألَّا تفسـدي علينـا مـا بدأنـاه، لا بـدّ لـك مـن العبـور معنـا، فأنـت تعلميـن أنَّنـا لـن نتـركك هنـا وحيـدة
ولكنّي لا أستطيع فالمنظر الخطر أفقدني عقلي!

ليـس عليـك إلَّا أن تمسـكي بـي وتسـيرين خلفـي مباشـرة، حتَّـى لـو أحببـت أن تغمضـي عينيـك فافعلـي، وأنـا سـأدلّك على موطـئ قدميـك، أرجـوك ليـس لنـا خيـار آخـر

اقتنعت شهلا بكلام حلا، وبدأ العبور على الجسر المعلَّق المتحرك المهترئ، وكان شاهر أوّل من مشى بالطَّابور وهو يحمل الصغير، تبعه عامر وفي الوسط حلا وشهلا ثمَّ بقية الشَّباب
مع كلَّ خطوة كانت القلوب على وشك السُّقوط ثمَّ تتماسك متشبّثة بمكانها ؛ فالمنظر مرعب والمسافة شاهقة، وحتَّى قاعدة الجسر الخشبية متباعدة الأعمدة، بمعنى أنَّ أيَّة حركة خاطئة ستهوي بصاحبها، فإن نجا من الموت من أثر السُّقوط فلن ينجو من الغرق، حتى إذًا بلغت القلوب الحناجر، بدؤوا يصلون تباعاً وقد جفّت أرياقهم وشحبت وجوههم، ولكن، الحمد لله لم يصب أحدهم بأذى، وعندما فتحت شهلا عينيها ورأت المنظر المخيف ثانية كاد يغمي عليها

قد تخطوا الآن مرحلة مهمة فهذا الطَّريق غير مطروق لخطورته وصعوبة السَّير عليه، وإن شاء الله سنعبر مقدونيا قال معين
هبطوا من التَّلة والتجؤوا إلى مغارة في أسفلها، شربوا من ماء نازل منها، كم هو عذب وطيب قال عمر! وأردف: لم أذق مثل هذه المياه طيلة حياتي

علينا الاستراحة لوقت قصير، ثمَّ متابعة السَّير لنصل إلى الحدود المقدونية الصِّربية مساء، ولن نعيد الخطأ نفسه الَّذي ارتكبناه سابقاً قال مُعين
وبعدما استراحوا قليلاً تابعوا مسيرهم باتجاه الحدود الصربية، ثم وصلوها قبل بزوغ الفجر، فدخلوها متسللين خشية أن يقبض الحرس عليهم، وكلّما سمعوا صوتاً غريباً ؛ لحيوان أو طائر ينبطحون أرضاً، وكثيراً ما كانت حلا تضع يدها وتضغط على فم صغيرها لكيلا يسمع العسكر صوته
صعدوا تلة عالية وانبطحوا، ولكن بكاء الصَّغير هذه المرَّة فضحهم، انتظروا قليلا فإذا بثلاثة رجال من الشّرطة الصِّربية يحيطون بهم
لا حول ولا قوة إلا بالله قال شاهر وتابع: الَّذي لا يملك حظاً عليه ألَّا يتعب ولا يشقى، قد أمسكوا بنا ثانية

كان مُعين يتحدَّث اللغة الإنكليزية. لاحظ شاهر أنَّه يتفاوض مع رجال الشّرطة، لحظات وأخرج مالاً من جيبه ودفعه لرجال الشّرطة فرحلوا عن المكان وتركوهم
هل أعطيتهم رشوة سأله شادي؟
أجل هذه الدُّول الاشتراكية سابقاً حالها كحال كثير من المناطق العربية، الرَّشوة والمحسوبية والفساد على أشدّه بها
الحمد لله أنهم كانوا مثل شرطتنا وكفونا بلاءهم قال عمر.
سأل شاهر ماذا علينا أن نفعل الآن؟

سننطلق إلى الحدود الهنغارية، وإذا دخلناها نكون قد قطعنا الجزء الأصعب من رحلتنا، فهي من الاتّحاد الأوروبي والأمور والحدود فيها أسهل اجتيازاً، وهي مفتوحة على النّمسا عبوراً لألمانيا ردَّ معين
ممتاز هذا الكلام قال شاهر وتابع: علينا أن نغذّ السَّير ولا نتوقف حتَّى نبلغ هنغاريا

انطلقوا في مسيرة صعبة وطرق أصعب إلى أن وصلوا إلى محطة قطارات مهجورة، فشعروا كأنهم امتلكوا قصراً. صعدوا القاطرة القديمة وأغلقوا الباب، فالهواء يصفر، والثّلج بدأ بالتّساقط والجو بارد إلى حد التَّجمد، ناموا لساعتين واستيقظوا على بكاء حلا، فحرارة الصَّغير مرتفعة، وهي لا تملك خافضات حرارة ولاعلاجاً للالتهاب، لم يستطع أحد فعل شيء، فعليهم المسير ليومين حتَّى يصلوا إلى الحدود، وهم يسيرون في مناطق بعيدة عن المدن، لم يعرفوا ماذا يفعلون! إلى أن قال شاهر: علينا الإسراع بالسَّير عسى أن نصل إلى مدينة مأهولة فيها مشفى أو طبيب

حمل شاهر الطَّفل بين ذراعيه، وأمِّه بجانبه تضع له كمادات ماء بارد رغم الصَّقيع، وبعد عدة ساعات لم يعد يُسمع للصغير صوت. وظنَّت أمّه أنَّه قد خلد إلى النَّوم، تفقده شاهر فوجد أنَّ قلبه هامد، وحرارته قد زالت،

وأصبح وجهه كالشَّمع، فنادى أخاه ليتأكد إن كان الطِّفل قد فارق الحياة؟ وعندما شاهده شادي أكد له وفاته، علا بكاء الأمُّ المسكينة وصرخت، ولكن صراخها ذهب أدراج الرِّياح، فلن ينفعها عويل ولا نشيج، ولن يرجع صراخها العالي فلذة كبدها، فقد مات كما مات آلاف الأطفال غيلة وغدراً على يد من تسبب بموت ابنها نفسه، بكته ولطمت عليه وتمسَّكت به مانعة الشَّباب من دفنه، وأقسمت أنها ستبقى بجواره في هذه الأرض إلى أن يتولاها الله هي الأخرى. ولم تنفع مناشداتهم لها ؛ وبعد أن أسقط بأيديهم قال عمر: هل لكم أن تتركوني وإياها لدقائق؟

وما إن ابتعدوا حتَّى أمسك يدها وقبلها قائلاً: يا خالة سأروي لك قصتي لتعلمي مع أنك فقدت مهجة قلبك، ولكنَّنا كسوريين وأنا واحد منهم فقدنا الكثير الكثير من أهلنا، وفقدنا كرامتنا وعزة نفوسنا، يا خالة، قد اغتصب عناصر أسد أمِّي أمام ناظريّ، ولم يكتفوا بذلك بل بقروا بطنها، وقد كنت قبل الآن أخجل من نفسي أن أقول لأحد إنهم اغتصبوني أنا أيضاً، ولكني الآن أشعر أنَّ عزة نفسي المفقودة قد عادت إليَّ، يا خالة، علينا أن نعيش لنفضح هؤلاء المجرمين، ونقول للعالم: إن الجريمة لا تموت بالتَّقادم، نحن شهداء على حقبة سوداء في تاريخ سورية، وفي تاريخ الحكم النُّصيري ؛ فعلينا أن نبقى أحياء لنوصل للعالم رسالتنا، وننقذ ما نستطيع إنقاذه من شعب سوريا الَّذي ما زال يعاني من تسلط النِّظام وجبروته، ابنك رحمه الله مات ؛ ولكن عليك أن تعيشي لتأخذي حقّك وحقّ صغيرك ممَّن جعلنا نطوف في أرض الله على غير هدى، فلندفن صغيرك تحت هذه الشَّجرة، ولتأخذي من ترابها حفنة لتزرعيها حيث رحلت، عسى أن تنبت أزهار تشمين منها رائحة صغيرك صباح مساء
ثمَّ طلب عمر منهم أن يدفنوا الصَّغير فقد حَلَّ الأزمة.

التاريخ يعيد نفسه

الشَّباب مجتمعون كالعادة في البيت نفسه، قال عثمان وهو يرشف الشَّاي الأسود الثَّقيل وكأنَّ خالداً الَّذي أعدّه قد أخرج كلّ ما في قلبه من سواد وضيق ووضعه في هذه المياه: بعد أن تفتّق ذهن العالم الحرّ وصنع المؤتمرات الدُّولية كأصدقاء سوريا، ومؤتمر جنيف وسوتشي وصَنَّع معارضات على مقاسه ومقاس النِّظام، وأخذ قرارات ضد أهل سورية لمصلحة بقاء أسد، مع علمهم أنَّه جزار العالم الحديث، وأنَّ المعتقلات مُلئت بالسُّوريين الأبرياء العُزّل بينهم أطفال ونساء، وزجّوا فيها المتظاهرين السِّلميين، وما يزال هذا العالم النَّذل يمكر علينا ويخترع الأكاذيب ليطيل عمَّر هذا الأفّاق المجرم بشار، وتابع: ألا ترون كثرة الاجتماعات الأمّيّة والعربية؟
ردَّ خالد: كلُّها لخيانة أهل سورية، وما يكاد يقتلني أنَّ هذه المعارضة المحسوبة على الثَّورة، وأقسم - وأنا صادق - إنَّ أغلبهم صُنع في دهاليز مخابرات النِّظام، وممَّا يغيظني أيضاً أنَّنا محاصرون بالغوطة، ممنوع أن يدخل علينا الطَّعام بأنواعه، نرشي الحواجز وضباطها ليسمحوا بدخول بعض المواد الغذائية إلينا، وبالمقابل نرى أن بعض زعماء المعارضة تخرج من الغوطة وتحضر الاجتماعات الدَّولية وتعود وكأنَّها في سياحة، أهناك من يستطيع تفسير ما نحن فيه من تناقضات صارخة مريبة

والله كلُّ ما في ثورتنا أصبح من غرائب الدُّنيا ؛ ويجب أن تصير ثماني غرائب بدلاً من سبع قال براء
ردَّ حاتم: من الواجب أن تكون هناك قيادة تفاوض، وتناور لنحصل على حقوقنا

سأل عثمان: أتعرفون قصة سربرنيتسا، تلك المدينة البوسنيّة؟

أجـاب خالـد: قـد سـمعت بعـض المعلومـات عنهـا، ولكنـي أريـد أن أسـمع التَّفاصيـل منـك

قـال عثمـان: عندمـا انهـار الاتحـاد السـوفيتي تمزَّقـت الـدُّول الاشـتراكية، وكلُّ قوميـة قديمـة اسـتقلّت بنفسـها، وعندمـا أراد البوسـنيون الاسـتقلال عـن يوغسلافيـا، قـام الصِّـرب النَّصـارى بحـرب إبـادة على البوسـنيين المسـلمين، وحاصـروا مدنهـم وقتلـوا عشـرات الآلاف منهـم، وقـد كانـت سربرنيتسـا عصيّـة عليهـم، حـاول الصِّـرب اقتحامهـا مـرّات عديـدة ولـم يفلحـوا ؛ فقـد كان ثوارهـا بواسـل، وكانـت الكتيبـة الهولنديـة المرسـلة مـن الأمـم المتحـدة مرابطـة على تخـوم المدينـة، فتواصلـوا مـع بعـض وجهـاء المدينـة، وأعطوهـم العهـود والمواثيـق وحلفـوا الأيمـان المغلَّظـة بالصَّليـب وأمِّ ربهـم مريـم، وطلبـوا منهـم تسـليم سلاحهـم على أن يعطوهـم الأمـان ويحافظـوا على أرواحهـم، صدَّقهـم بعـض الوجهـاء وأمـروا مـن في الدَّاخـل تسـليم سلاحهـم وتـرك المقاومـة رفـض بعـض الشَّـبان في البدايـة ولكنهـم أذعنـوا للأمـر عندمـا وجـدوا أنَّ رأي الأغلبيـة الاسـتسلام، وخشـبة مـن وقـوع اقتتـال داخلـي إن لـم يفعلـوا، وأنَّ الأمـم المتحـدة هـي الضَّمـان، ومـا إن سـلّموا سلاحهـم حتَّـى انسـحبت الكتيبـة الهولنديـة وفتحـت الطَّريـق مفسـحة المجـال لوحوش الصّرب باجتيـاح المدينة، فأعملـوا بأهلهـا السَّـيف والرَّصـاص واغتصبـوا الحرائـر، وارتكبـوا أفظـع المجـازر فقتّلـوا الآلاف مـن أهـل هـذه المدينـة

قـال بـراء والدُّمـوع تغالبـه: التَّاريـخ يعيـد نفسـه، والظَّاهـر أنَّـه مـن لـم يتعلَّـم مـن تجـارب الآخريـن يخسـر، ولكـن في حالتنـا قـد نخسـر حياتنـا

وما العمل قال حاتم؟

ردَّ خالـد: لاخيـار لنـا سـوى السَّلاح والقتـال، وعندمـا نفـاوض نكـون في موقـف قـوة، وعلينـا أن نقـوم بثـورة على بعـض قادتنـا الَّذيـن صـاروا كأسـد وجيشـه، هـل تعلمـون يـا شـباب أن لـدى الفصائـل المختلفـة معتـقلات ومحققيـن شرسـين وحتَّـى محاكـم ميدانيـة! وأنَّ المعتقَليـن مـن الفصائـل الأخـرى يعاملون كمعاملـة النِّظـام لنـا

ردَّ عثمـان: الظُّلـم ظلمـات، لـن تنجـح هـذه الثَّـورة إلَّا بمحاسـبة مـن تسـلَّق عليهـا ؛ إن كان مـن العسـكر أو مـن الخونـة الَّذيـن يفاوضـون النِّظـام تحـت رايـة المعارضـة وهـم في ظـل النِّظـام

يا شباب: لولا تحرير إدلب لفقدت كلّ أمل بالثَّورة والحياة قال براء.

الوصول

بعد أن دُفن الصَّغيرُ معتزُ تحت شجرة صفصاف كبيرة، خاطبتها حلا همساً مسترحمة إياها طالبة منها أن تحرس ابنها، وتحميه ولا تدع أحداً يقترب منه، قالت لها: إنَّه أمانة لديك والأمانة غالية، أخبرتها أنَّها خرجت من بلدها وبيتها لتحافظ عليه، لكنه تركها تعضّ أصابعها ندماً وحسرة ولم يعبأ بها، ترجَّت الشَّجرة أن تكون أرحم على صغيرها منها، وعدتها وأقسمت إنَّها ستزورها في يوم ما، بكت كثيراً، وأخذت حفنات من تراب القبر فحضنتها وضمتها إلى صدرها، ورحلت عن الشَّجرة بعد أن تركت قلبها مدفوناً قربها

تابع الصّحاب المسير، لكن هذه المرَّة دون الصَّغير، وقد شعروا بفقدانه، والحنين إلى صوته العذب الشجيّ، وبكائه الَّذي كان يسلّيهم ويزرع الطَّمأنينة في قلوبهم، شعروا بالهدوء المميت والسُّكون القاسي، في هذه المرَّة فقدوا شيئاً لم يقدِّروا قيمته سابقاً، وكأنَّ الحزن كُتب على أهل سوريا أينما رحلوا وكأن الشَّقاء لم تجتمع أنواعه يوماً إلَّا لينزل على أهل سوريا، وما الطِّفل معتز إلَّا جزء بسيط من نكبات وكوارث وآهات سكنت قلوب معظم مواطني شعب سوريا

ساعات لم يتحدَّثوا مع بعضهم، فالحزن أصابهم جميعاً والمأساة باغتتهم كصَّاعقة مسرعة
قطع عمر سكون الموقف قائلًا: ما هذا البرد الَّذي لا يطاق! أرجوكم أريد استراحة حتَّى أتفقَّد أصابع قدميّ، لأرى هل ما تزال موجودة!؟
ردَّ معين: أجل علينا الاستراحة ؛ فقد نال منا التَّعب، سنبيت ما بقي من الليل على هذه التَّلة ونتابع السَّير صباحاً

لبسوا أكياس النَّوم الَّتي جهزوها سابقاً، وحاولوا النَّوم، مضت ساعتان أو ثلاث، لم يستطع عمر النَّوم فيها، فالبرد يكاد يجمّده، وصار يرتجف كغصن زيتون يُهز حين القطاف
أفاقوا جميعاً واستعدوا للسير.

ما بالك؟ قال شاهر لعمر: أراك غير مرتاح والتَّعب باد على محياك.
لم أستطع النَّوم وبطني تؤلمني وأشعر بحرارة، ربّما أموت كما مات الصِّغير.
إياك أن تكرر هذه الكلمة، سنعيش وتعيش أعواماً طويلة، ونعود إلى وطننا وأرضنا عندما يخرج الأغراب المحتلون منها، دعنا نمشِ، وإن شاء الله ستشفى بعد قليل
اتجهوا إلى السِّكة الحديدية وساروا عليها، وكان طريقها ضيّقاً وكلّما أحسوا أنَّ أحد القطارات قادم ارتموا مبتعدين عنه، ولكن مرض عمر تفاقم حتَّى إنَّه لم يعد يستطيع السَّير
وأخيراً سقط على الأرض وقد فقد وعيه، أسرعوا جميعاً إليه حاولوا إيقاظه دون جدوى
قال شاهر: علينا أن نجد قرية مسكونة لننقذ عمرَ، ولو خاطرنا بحلمنا ورحلتنا

ردَّ معين: بعد خمسة كيلومترات هناك منزلاً لقرويين، كنت أراه من بعيد، سنتوكَّل على الله ونقصده، ولنجرِّب حظنا
اقتطعوا غصنين من شجرة بجوارهم وألبسوهما كيس نوم ومددوا عمر عليها وسحبها شاهر وشادي
ساروا باستعجال إلى أن بان المنزل من بعيد، راقبوا الوضع قبل أن يتجهوا إليه، فوجدوا عجوزاً وزوجه يتحركان بفنائه
ذهبوا إليهما وما إن وصلوا حتَّى أشار شاهر للعجوزين طالباً منهما أن يريا عمر
عندما رأت العجوز أنَّ الشَّاب مريض طلبت منهم الدُّخول إلى بيتها فوراً.

لأوَّل مـرَّة يشـعرون بالـدِّفء منـذ أن غـادروا (الكامـب) أسـرعت العجـوز بوضـع الكمـادات على جبيـن عمـر ؛ فالحـرارة أصبحـت تهـدد حياتـه، وغلـت مـاء وضعت فيـه عشـبة، وأمسـكت الملعقـة وصارت تسـقيه رشـفات قليلـة، الأعصـاب كانت مشـدودة فكلَّهـم خائفـون مـن فقـدان عمـر كمـا فقـدوا الصَّغيـر معتـزاً قبلـه بعـد أقـل مـن نصـف سـاعة فتـح عمـر عينيـه على ابتسـامة العجـوز فتسـاءل أيـن هـو؟ لـم تفهـم العجـوز مـا قـال ولكنهـا ربتـت على كتفـه ومسـحت رأسـه بيـد حانيـة ذكّرتـه بأمـه

قـام العجـوزان باسـتضافتهما ثلاثـة أيـام مـع تقديـم الطَّعـام، وقـد كان مُعيـن خائـفاً مـن أن يبلّغـا الشّـرطة عنهـم، ولكـن مـا حصـل أنهمـا أكرموهـم بالرَّغـم مـن عـدم معرفتهمـا بلغتهمـا
شـفي عمـر مـن الحمّـى، وفي اليـوم الرَّابـع قـرروا متابعـة الرِّحلـة، وعنـد الـوداع أخـرج شـاهر مـالاً دفعـه للعجـوز، الَّـذي تبـدَّل وجهـه وردَّ إليـه المال مـع كلمـات غاضبـة، لـم يفهـم شـاهر مـا قالـه ولكـن الأمـر بـدا أنَّ العجـوز يقـول: كلّنـا بنـو آدم حتَّـى ولـو اختلفنـا باللـون والعقيـدة ؛ فنحـن أخـوة في الإنسـانية
انكـبّ شـاهر على يـدي العجـوز وقبلهمـا، وقـال لـه كلمـات شـكر عجـز لسـانه عـن شـرح مـا في قلبـه
بعـد أن رحلا عـن بيـت العجوزيـن قـال شـاهر لشـادي: أرأيـت الفـرق الشَّاسـع بيـن مـا فعلـه أفـراد الدَّولـة اليونانيـة وحـراس الحـدود وبيـن الشَّـعب البَّسـيط أجـل، هنـاك فـرق كبيـر بيـن السَّاسـة والشَّـعوب في كلِّ دول العالـم، ولـولا الحـكام المتسـلطون لعـاش النَّـاس في كلّ أرجـاء المعمـورة بـسلام وأمـان عـاودوا السَّـير على سـكة القطـار، إلـى أن وصلـوا إلـى جسـر أشـار معيـن أنَّ عليهـم الانتظـار تحتـه حتـى يحـلُّ الـظَّلام، فسـتأتي سـيَّارة لتأخذهـم، وبعـد سـاعتين شـاهدوا مـن بعيـد ضـوء سـيَّارة يضـيء وينطفـئ

قـال معيـن: هـذه سـيَّارتنا، خرجـوا مـن تحـت الجسـر وركبـوا السَّـيارة الَّتـي أوصلتهـم إلـى الحـدود الصِّربيـة مـع هنغاريـا

أخبرهم مُعين بما يخطط له قائلاً: سأذهب وأتكلَّم مع الشرطيين الواقفين عند تلك النُّقطة عليكم الاختباء في أماكنكم، فإذا رأيتم إشارة مني أتيتم إليَّ وإن قبضوا عليَّ فعليكم الاستمرار بالاختباء

ولما رؤوا أنَّه أدخل يده في جيبه وأخرج شيء قدَّروا أنَّه رشوة، أزيح الهم عن قلوبهم، وما إن شاهدوا إشارة منهم حتَّى وثبوا يتراكضون إليه مرّوا عبر السِّلك الشَّائك وكأنَّ صخوراً كانت جاثمة على قلوبهم وأحمالاً ضخمة على ظهورهم تخلصوا منها دفعة واحدة، فقد قطعوا أكثر الطُّرق صعوبة، ودخلوا إلى الاتحاد الأوروبي ولن يخشوا التَّرحيل بعد الآن

ساروا ساعات بهمة عالية إلى أن وصلوا لمحطة قطارات، اشتروا تذاكر إلى العاصمة بودابيست، أخذهم معين إلى بيته فهو يسكن في هذه المدينة جلسوا فيه أسبوعاً، وبعد أن أزالوا عنهم وعثاء الرَّحلة اشتروا ثياباً جديدة تليق بأوروبا، وأعطوا المهرب ما اتفقوا عليه من مال، واشتروا تذاكر حافلة إلى فينا وعندما وصلوها ودعتهما شهلا وحلا وشكرتاهما على ما قدموه لهما، وقالتا: إنهما سيطلبان اللجوء إلى النَّمسا، ولن يتابعا إلى ألمانيا ؛ كفاهما مالاقتاه من مصاعب وتنقّل ، تابع الشُّبان الثَّلاثة طريقهم إلى ألمانيا، وقد اختار شاهر مدينة هانوفر لتكون مستقراً لهم

التَّرحيل

قال خالد لعثمان: يبدو أنَّ النِّظام لن يقف في وجه جرائمه أحدُ من العالمين العربي والغربي، وأنَّ إخوة العرب نسوا أو تناسوا ما نحن فيه من عذابات ونكبات! وأنَّ (بان كي مون) الأمين العام للأمّم المتحدة سينهي ولايته وهو قلق، إلَّا أنَّه سينام ملء جفنيه، وأنَّ مندوبي الدُّول الكبرى في هذا المجلس الكرتوني سيعيشون ماتبقّى لهم من عمر مستنكرين، وباقي الدَّول الأوروبية والصَّغيرة ستتباكى علينا إلى أن تجفَّ دماؤنا، وأردف: أتدري أنّ النِّظام قصف خان شيخون في ريف إدلب بالغازات الكيماوية؟ ومَن لم يدرِ! فالعالم كلُّه رأى وسمع، والحقُّ يقال ؛ إنَّه دان هذه الجريمة البشعة

يا عثمان، شيء يضع العقل بالكف، أمسموح أن نموت بقصف الطَّائرات، وتموت النَّاس تحت الأنقاض دون أن نسمع أيّ تحرك ضد هذا الإجرام! وعندما يتعلَّق الأمر بالكيماوي تقلق جميع الدُّول! قبل عام تقريباً قُصفت محكمة إدلب وراح ضحيتها أكثر من مئة وثلاثين شخصاً في أقل من دقيقة، يومها لم نرَ أيّ حراك أو نسمع بشجب لأحد! واليوم راح ضحية القصف الكيماوي على خان شيخون مئة بريء، لم يُبالِ بنا أحد، ولكن هناك من أشار إلى الحادثة، وعندما أراد الرَّئيس الأمريكي ترامب الردَّ على قصف بشار للمواطنين بالكيماوي ووصفه يومذاك بالحيوان، وجيَّش الإعلام وضخَّم المسألة، وأخيراً ولد الجمل فأراً، فقصف منشأة كيماوية في حيٍّ برزة، وقد أخبر النِّظام بطرق مختلفه مسبقاً فأفرغ المنشأة ولم يُصَب أحدُ منهم بأذى
والشَّيء المضحك خرجت قطعان الشَّبيحة في اليوم التَّالي تدبك وترقص على ألحان: نحن رجالك يا بشار

أجل شاهدتهم ومن الطَّبيعي أن يكون لهذا النِّظام مثل هذه الحاضنة التَّافهة، وأن تحيط به وتؤيده الفئات المنحرفة الموتورة، في الواقع الحيوانات على جهلها أفهم منهم وأصلح أفئدة، وسيأتي يوم يقولون فيه: يا ليتنا كنّا تراباً

ليكن في علمك يا خالد أنَّ العالم نزع السِّلاح الكيماويّ من النِّظام خوفاً من أن يرحل النِّظام وتأتي حكومة مناهضة للدولة الصّهيونية فتهدد وجودها، وأبقى القليل لديه حتَّى يؤدب من يحاول أن يخرج من حظيرته، هم لا يخشون من نظام القاتل بشار لأنهم هم وضعوه على كرسي الحكم، ولكن يخافون من المستقبل ومن الشَّعب وقراره، لهذا سحبوا معظمه من يده
وفي هذه الأثناء اشتدَّ الحصار على غوطة دمشق أكثر فأكثر، وبات جليّاً أنَّ القرار العالمي قد اتُّخذ بإبعاد الثُّوار طالبي الحريّة والَّذين يسميهم العالم بالمتشددين إلى منفاهم في إدلب، فقد وجد العالم ومن ورائهم نتنياهو رئيس ما يسمى بدولة إسرائيل صديق بشار بالخفاء أنَّ عليهم إبعاد المسلمين السّنة ما أمكن عن حدود دولته المصطنعة، ولم يجد مساعداً له على تحقيق مخطّطه أفضل من بشار وطائفته

طالبت روسيا الثَّوار بالاستسلام والتَّرحيل لادلب، فرفضوا في بداية الأمر ترك بلدهم ومنازلهم وإن كانت مهدّمة
فاستعمل الكيماوي مرة أخرى في الغوطة فقتل العشرات من أهلها، ممَّا أجبر معارضي المجرم بشار على الرَّحيل إلى إدلب مخافة على من تبقّى من أهل بلدهم

المشهد اليوم في الغوطة كيوم الحشر، وقد ذُهلت كلّ مرضعة عمّا أرضعت، فكلٌّ من يخشى انتقام بشار وسجنه أخذ عائلته وحاول الفرار بروحه قبل أن تمسكه الوحوش الضَّارية، ازدحام شديد على الحافلات مع غياب المرجعية والتَّنظيم فمن قاد الحراك المسلح وباع نفسه لأجندات

الـدُّول نجـا بنفسـه وأهلـه، وتـرك الثـوار الحقيقييـن لمصائرهـم، وكلٌّ يدبِّـر رأسـه، والنَّجـاة لمـن تسـلَّق على الثَّـورة لا لمـن ثـار وقصـد وجـه اللـه
قال عثمان لخالد: أرأيت براءً وحاتماً؟
نعـم، هما آتيـان خلفـي وسـيصطحب بـراء أمَّـه فليـس لها سـواه، ولـن يتركها وحيدة

انظـر - يـا خالـد - إلـى مـدى الرُّعـب في عيـون النَّـاس! واللـه لـو كان التَّتـار الغـزاة سـيدخلون إلـى بلدهـم لما خافـوا منهـم كمـا هـم الآن
لا أعتقـد - يـا خالـد - سـيمرُّ على التَّاريـخ الحديـث أحقـر وأشـدّ إجـراماً مـن هـؤلاء المارقيـن الطُّغـاة
قسـماً باللـه لـو تُـرك أمرهـم للشـعب لوجـدت أجسـادهم ممزقـة تلتهمهـا وحـوش البـراري، ولكـن مـاذا سـتقول لعالـم أكثـر إجـراماً منهـم
ومـاذا فعلـت معارضتنـا في الخـارج مـن كيانـات وحكومـات لأجلنـا! نحـن مـن ضحينـا ووقـع البـلاء على رأسـنا
أمَّـن معظمهـم مسـتقبل أولادهـم وعلموهـم كيـف يصلـون وكيـف يركبـون الموجـة كلَّما غيَّـرت اتجاهها، ويسـتعدون لثـورة أخـرى كـي ينشـروا شـراعهم مـع الرِّيـح

ولكن مايهوِّن علينا مصائبنا أنَّ الله يرى وكفى به رقيباً وحسيباً.
انظـر، هاقـد أتـى أصحابنـا، ركبـوا جميعهـم مـع كثيـر ممَّـن آلـى على نفسـه على أن يهجـر بلـده وبيتـه وموطنـه ولا يرجـع ليعيـش في حظيـرة المعتـوه بشـار المسـمى رئيـساً، وحقيقـة لـو كان الأمـر لـي قـال عثمـان لما اسـتعملت هـذا الحقيـر ورقاً للتواليـت ؛ وهـذا قـد يكـون أرفـع منصـباً يسـتحقه
هُجِّـر أهـل الغوطـة وفي قلوبهـم لوعـة وأسـى وحـزن، وغضـب على كلِّ مـن أوصلهـم إلـى هـذه الحالـة
نظـر خالـد إلـى بيتـه مُـودّعاً والدُّمـوع تفيـض مـن عينيـه، وقـال: اللهـم عليـك ببشـار ومـن والاه، ومـن خـان الثَّـورة وجمـع الملاييـن وباع ناسـه وعرضـه ووطنه

لا يمكـن أن يوصـف عمـق الأسـى الَّـذي سـكن في قلـوب مـن ركـب الحافلـة الخضـراء، وقـد دأب النِّظـام على ترحيـل أهـل سـوريا المعارضيـن لحكمـه بهـذه الحـافلات الخضـراء، ولا أعلـم إلامَ كان يرمـز

سـأل بـراء: أتـرى هـذه الحـافلات بلونهـا الأخضـر؟ أترمـز إلـى إدلـب الخضـراء! أم أنَّ العالـم الظَّالـم أراد أن يفهمنـا أنَّ إدلـب مسـتقراً ومقبـرة لنـا، ولـكلِّ مـن وقـف بوجـه أسـد ولـكلِّ مـن قـال: لا لوحـوش العصـر! أو أنَّ النِّظـام أراد أن يُشـعرنا أنَّ الـسَّلام قـد عـمَّ عندمـا رحلنـا وهُجرنـا مـن أرضنـا. على كلّ حـال لـم يعـد للأمـر أهمّيَّـة ؛ فقـد حقـق النظـام هدفـه، وللأسـف أنَّ الصَّدمـة الأخـرى مـن بعـض قوادنـا الَّذيـن سـاعدوه ليخمـد الثَّـورة في أطـراف دمشـق بعـد أن كانـت الغلبـة لنـا

اتصـل بـراء بصفـوان وأخبـره أنهـم قادمـون إلـى إدلـب، وطلـب منـه تأميـن مكان لهـم ريثمـا يتدبَّـرون أمرهم

وقد رحب بهم أيَّما ترحِّيب، وقال: إن المكان جاهز وهو بانتظارهم.

ادلب الخضراء

تـرك المُرحَّلـون ديارهـم وفي القلـب غصَّـص ولوعـات، وانطلقـت بهـم الحـافلات الخضـراء عبـر غوطتهـم الخصبـة، لـم يسـتطع خالـد متابعـة النَّظـر مـن خلال النَّافـذة، فأشـاح بوجهـه، وبـدأ بنوبـة بـكاء قسـريّة لـم يسـتطع كبحهـا، ممـا جعـل كلُّ مـن في الحافلـة كبـاراً وصغـاراً يبكـون وكأنّ كلّ منهـم قـد فقـد عزيزاً. حـاول عثمـان أن يواسـيه وينسـيه مـا هـو فيـه دون فائدة، ثـمّ انخفضـت أصوات البـكاء ؛ فقـد أقنعـوا أنفسـهم بمـا كُتـب عليهـم، وسـلَّموا أمرهـم لخالقهـم ورضـوا بالأمـر الواقـع، وصـار أكبـر همهـم كيـف سـيتدبَّرون أمورهـم

عندمـا دخلـوا خـان شـيخون ارتـدّت أرواحهـم إليهم ؛ فهـذه أرض الثَّـورة المباركة وهـؤلاء إخوانهـم الحقيقيـون، ولـن يخافـوا ظلـماً بعـد اليـوم، أجـال خالـد النَّظـر مـن النَّافـذة على السُّـهول الرَّائعـة والهضـاب الَّتـي ظنَّهـا نازلـة مـن الجنـة، مَـرّوا على أشـجار الفسـتق الحلبـي، وشـاهدوا جمـال تنسـيقها وروعـة لونهـا الأخضـر، رأوا مـن بعيـد جبـل الزَّاويـة الأشـمّ، جبـل الكرامـة والمـروءة، ومـرّوا بمعـرة النعمـان، وتذكـر عثمـان أبـا العـلاء المعـري، ورأى قبـر الخليفـة عمـر بـن عبـد العزيـز الأمـوي قاهـر المجـوس وجرائهـم، كـم تمنـى لـو أنَّـه ولـد في ذلـك العصـر الذَّهبـي لأمـة الإسلام ولـم يـرَ تتـار العصـر النّصيريين، ولـم يسـمع بهـم! ثـمَّ شـاهدوا قبـل أن ينعطفـوا إلـى إدلـب مدينـة سـراقب، قـال حاتـم: مـن لـم يـأكل مـن بوظـة سـراقب مـات ناقـصاً عُمْـراً

انعطفـوا أخيـراً إلـى طريـق إدلـب ومـروا بمدينـة سـرمين الَّتـي أذاقـت جنـود بشـار طعـم المـوت والهزيمـة منـذ بدايـة الثَّـورة، إلـى أن وصلـوا إلـى دوّار المحـراب، وهـو مدخـل مدينـة ادلـب المنسـيّة كمـا كان يسـميها الشـعب في عصـر المقبـور حافـظ

وكم تفاجأ عثمان باستقبال حافل يليق بأهل الغوطة المكلومين المرحلين من المحتشدين على الدوّار
ولفت انتباه خالد أنَّ من كان ينتسب للفصائل أُخذ بيوتاً معدة لهم مسبقاً في قريتي كفريا والفوعة، وقد كان يسكنهما الشّيعة، وقام النِّظام بالاتفاق مع جبهة النّصرة وقائدها الجولاني بترحيلهم الآمن إلى حلب ومنها إلى اللاذقية، وقد أوغل أهل هاتين القريتين بدماء أهل إدلب وريفها وكان فيهما إيرانيون وميليشيات أخرى

سأل خالد زوج أخته: ونحن من لنا؟ ومن سيقوم بإيواء هذا العدد الهائل من النَّاس؟
الله لنا ثمَّ المحسنون من إخواننا الأدالبة.
وصل صفوان صاحب براء، فاستقبلهم استقبال الفاتحين، وأركبهم سيارة كبيرة، وطيلة الطَّريق كان يرحب بهم ويخفف عنهم آثار التّرحيل

أوصلهم إلى منزل بجوار مدجنة فيه أربع غرف منفصلة عن بعضها مع حمام مشترك، وسرّى عن أنفسهم أيضاً أنهم وجدوا في إحدى الغرف مائدة فيها مالذَّ و طاب ؛ فهم لم يأكلوا الفواكه واللحوم منذ أكثر من ثلاثة أشهر، اندفعوا بلا خجل وبدؤوا بالتّهام الطَّعام
وما إن انتهوا حتَّى قال لهم صفوان: ستمكثون هنا ما شئتم ومن يرغب أن يعمل بالمدجنة فأهلاً به، وكلُّ ما تطلبونه ملبّى ؛ فأنتم أهلي وأنا أخوكم وابنكم ؛ أهلاً بكم في وطننا ووطنكم

شفت كلمات صفوان صدورهم وبدَّدت مخاوفهم من المجهول.
انقلبت حياة خالد ورفاقه رأساً على عقب، فبعد أن كانوا محاصرين في بقعة جغرافية صغيرة ممنوع عنهم التَّنقل مقطوع عنهم الطَّعام والغذاء، فُتحت لهم الأرض وشعروا بحريَّة لم ينعموا بها من قبل، حقاً إنَّ غرفة واحدة لم تكن غاية لهم ولكنها نعمة من الله

عمل عثمان وزوجته وبراء وحاتم في المدجنة.
واختار خالد العمل في تجارة العقارات ؛ فقد خبّأ بعضاً من أموال والده وأحضرها معه
الوضع الجديد صار أكثر من مريح لخالد، فقد استأجر مكتباً وشرع العمل فيه، وأصبح له معارف في وقت قصير وقياسي، فمعروف عن أهل إدلب طيبتهم وحبهم للضيف، فكيف إذا كان من أهل ثورتهم ومن مظلوميها، بالرَّغم من قصف طائرات أسد لإدلب بين الحين والآخر ولكنهم تأقلموا على هذا الوضع وعايشوه وصار أمراً اعتيادياً

وكلَّما تقدّم الوقت شعر خالد بالضَّيق فها هم ثوار حمص يُرحَّلون لإدلب، وحلب أعادتها الاتفاقات بين الدَّول المختلفة لحضن النَّظام، وها هو الإرهابي المجوسي الإيراني قاسم سليماني يتجوَّل بأحيائها ويعلن النَّصر على بيوتها المدمرة وشوارعها المخرَّبة الفارغة وأهلها المرحَّلين
إلى أين تسير ثورتنا؟ قال خالد لعثمان وبراء وحاتم وانضم إليهم صفوان ؛ فها هي ذي جبهة النّصرة بدَّلت جلدها وغيرت اسمها وتخلت عن مشروع القاعدة العالمي، وحاربت بقيَّة الفصائل تحت حجج كثيرة، وانقضّت على سلاحهم، وهجَّرت وسجنت كل من يعارضها وأعلنت لها حكومة على حدود إدلب وريفها سمّتها حكومة الإنقاذ، وصار لها وزراء ودوائر وفرضت الرُّسوم والمكوس فأثقلت كواهل النَّاس، أهو التَّقسيم أم نهاية الثَّورة؟

أجاب صفوان بحماسة الثَّائرين الَّتي فقدها مستمعوه: مازلنا نحافظ على مناطق شاسعة من إدلب ولن نسمح لأيّة قوة في العالم أن تأخذ شبراً واحداً منها، وإن حاولوا ستنتشر أشلاؤهم في الأرض والسَّماء
ردَّ عثمان وقد خَبِر المكر والخداع وخيانة القريب والبعيد: رويدك يا صفوان فنحن نواجه العالم بشراسته، وأؤكد لك أن كلَّ ما جرى رُسم له وخطط في سراديب النِّظام العالمي، وأزيدك معلومة: إن كلّ الحكومات العربية مع معارضاتها تتبع لأجندات غربية، حتَّى إنَّ كلَّ الفصائل الجهادية مرتبطة

بجهات تصل إلى أروقة هذا النِّظام العالمي من حيث يدرون أو لا يدرون وقادمات الأيام ستنبئك بما غفلت عنه، ثقْ بي، إن الأمر أكبر من المخلصين أمثالك وأكبر من أكباش الفداء أمثالنا

لم يمضِ وقت طويل حتَّى بدأ نظام أسد وميليشياته من أفغان وشيعة عراقيين وحزب الله بغطاء جوي من طائرات الغدر الرَّوسية وبتمويل من بلد عربي مسلم، وبمباركة من بلاد عربية أخرى الهجوم على ريف إدلب وخلال أيام أخذ منطقة واسعة شاسعة بعد أن نفّذت هيئة تحرير الشام - وكان اسمها جبهة النَّصرة - انسحاباً تكتيكياً من خان شيخون إلى أطراف سرمين
قال خالد: والله كنا مئة مقاتل نقف في وجه أسد وزبانيته شهوراً ونمنعه من التَّقدم أمتاراً، فكيف تسقط مساحات شاسعة بين ليلة وضحاها
أجابه براء سمعت أن بطلاً من آل حصريّة أوقف تقدم الآلة العسكرية لجنود المعتوه أسد والروس أكثر من أربع ساعات في معرة النعمان، قاتل وحيداً إلى أن قُتل، ونحسبه شهيداً عند الله، فما بال هؤلاء الَّذين أطلقوا لحاهم ورددوا: أن لاحياة إلَّا حياة الآخرة، كما كانوا يصرِّحون في كلِّ لقاء متلفز، انسحبوا دون رصاصة واحدة

زاد ألم عثمان وصحبه، فقد خافوا من وأد الثَّورة والتَّرحيل من جديد، ولكن إلى أين فالعدو من أمامكم والبحر من خلفكم! فقد أغلقت تركيا حدودها ومنعت أيّاً من المهجّرين الدُّخول إلى أراضيها، وقد حوصرنا في ما تبقّى من إدلب والأمر يومئذ لله

سجون متشابهة

لم يكتفِ النِّظام بقضم الأراضي بمساعدة حلفائه الشِّيعة والرُّوس، وممَّن اخترق بهم جُدر الثَّورة، بل تابع قصفه للمزارع والأحياء المكتظّة، وفي هجوم غادر على مدجنة صفوان قُتل عثمان وزوجته وحاتم، ونجا براء ولكن أمُّه بُترت رجلاها وأصبحت عاجزة عن المشي
لم يبكِ خالد في هذه المرَّة؛ فقد صار قلبه أصلب من الصَّخر، استأجر بيتاً وسكنه مع براء وأمّه، وبعد أن هدأت الحملة الأسدية وتمركز كلّ جيش عند حدود جديدة، لاسيما بعد تدخّل الجيش التركي إذ قتل أكثر من خمسة آلاف من مرتزقة أسد، وهذا ما جعل الرُّوس يقفون عند هذا الحد من الأرض

عمل براء مع خالد وعادت الحياة إلى سابق عهدها من جديد، ولكن ما خسره خالد لن يعود، وما يكتمه في صدره تنوء الجبال من حمله
وفي تغريدة له على صفحات التَّواصل الاجتماعي كتب: خانوكِ يا إدلب كما خانوك يا غوطة
بعد يومين إذا برجال ملثمين مدججين بالسَّلاح يقفون على باب مكتب خالد، سأل أحدهم: أنت خالد؟
نعم، أنا هو. هل هناك ما أستطيع أن أخدمكم فيه.
هناك رسالة من قائدنا أبي ماريا القحطاني.
ومن هو هذا القحطاني؟
أنت أجدب أم أنك تتذاكى علينا؟
لا والله لا أعرفكم، ولا أعرف قائدكم هذا.
إنَّه المجاهد الكبير الَّذي أتى من العراق لينصر ثورة أهل سورية، ويطبّق

الشَّـرع والشَّـرعية، ويعلّـم أهلهـا الإسلام على حقيقتـه، وهـو القائـد الأمنـي لتحريـر الشـام وحامـي أسـوار المجاهديـن
والنّعم والله منك ومنه، الآن تعرَّفت عليه، تفضّل ما طلبكم؟
نريـد أن تضـبّ لسـانك في فمـك، ولا تخرجـه أبـداً ؛ وإن لـم تفعـل فسـنفعل نحـن

ظننـت أنَّـي في ثـورة وأنَّ العـدل فيهـا قائـم، وعندمـا أتيـت إلـى إدلـب كنـت أعتقـد أنِّـي هربـت من سـطوة عصابـات إجراميـة، فإذا بي أرى نظام أسـد بشـكل آخـر، اذهـب إلـى قائـدك وقـل لـه: إنَّ أهـل الغوطـة عاصـون على أمثالكـم
قد أعذر من أنذر، ولك الخيار إمّا السُّكوت وإمّا، أنت تعرف الباقي...
إي روح إيـدك ومـا تعطـي ؛ بشـار المجـرم الكبيـر لـم أخـف منـه، فهـل أخـاف مـن مرتزقـة ملثّمين
وفي تغريـدة أخـرى كتـب خالـد على صفحتـه: كنّـا بأسـد فصار عندنـا قطعـان منه
في اليـوم التَّالـي وقفـت ثلاث سـيارات أمـام مكتـب خالـد، ونـزل منهـا ملثّمـون فانهالـوا عليـه بالضّـرب والـرَّكل واللّكـم واقتـادوه إلـى جهـة مجهولـة
سـارت سـيارة خالـد خـارج إدلـب وقـد عصّبـوا عينيـه بوشـاح أسـود، سـألهم خالـد: إلـى أيـن سـنتوجّه؟

فسـمع قهقـة عاليـة ثـم شـعر بألـم في خاصرتـه لأنـه تلقّـى وكـزة قويـة، وسـمع ردّاً سـاخراً: إلـى فنـدق المريديـان، فهـذا مخصـص لأمثالـك
شـعر خالـد أنَّـه يصعـد تلـة عاليـة ؛ فقـد أمضـت السـيارة وقـتاً طـويلاً وهـي تصعـد، وأخيـراً توقفـت ودفعـه أحدهـم فسـقط على أرض جبليـة أحـس أن عظامـه قـد تكسـرت، رُفعـت العصابـة عـن عينيـه، فـرأى أنـه قـد وصـل إلـى حافـة جبـل، وبـدا لـه بنـاء بُنـي حديـثاً
اسـتقبله الـجلّاد بلكمـات، وكلمـات قاسـيّة تـدلُّ على أن صاحبهـا لا يعـرف شـيئاً عـن تعاليـم الإسلام، ولـم يـدرس يـوماً سـيرة الرَّسـول العظيـم، قـال في

نفسه: إذا كان هؤلاء من سيرفعون راية لا إله إلَّا الله فأنا واثق أنَّ الفشل مآلنا ومآلهم
أُدخل إلى مهجع كبير في قلب الجبل، ورمي فيه بعد أن ضُرب وأهين.
عندما تحسّس المكان وساكنيه وجد أنَّ معه أكثر من عشرة معتقلين في المهجع
جلس على سريره يستذكر أيام الثَّورة الماضية، وكم كان يمنّي النَّفس أن يغير النَّظام ويعيش في دولة العدل والعدالة، في دولة لا محسوبيات فيها ولا أسد ولا بغل يحكمها، فإذا به يرى خنازير العالم وكلابه المسعورة تنقضّ عليها وتفسدها وتسلِّم أمورها إلى غير أهلها
وممَّا ازداد في دهشته أنَّه طلب ماء للوضوء فكان الجواب الَّذي لم يتوقعه: أنَّ عليه أن يتيمّم أو يترك الصَّلاة، فأمثالك لا تُقبل منهم صلاة ولا تُرفع لهم أعمال

أأجلسك الله على كرسي حكمه حتَّى تكون قسيم الجنة والنَّار؟
اِخرس أيها الخائن لله ورسوله، فمن يخن قيادته يخن ربَّه.
ومن قال لك: إني أعترف بهم قادة؟ ومن منحهم الشَّرعية ليكونوا سيوفاً مسلّطة على رقابنا
قال له أحد رفاق الزّنزانة: لا تجاوبه ؛ فهذا نسخة أصلية عن شبيحة أسد، فكلُّ (يُشبح) لسيِّده وولـيّ نعمته
أنا اسمي محمد من حمص، وأنت؟
خالد من غوطة دمشق، من عربين أرض الخير.

وما تهمتك؟
عرّيت خيانتهم على وسائل التَّواصل الاجتماعي.
أووووف تهمتك كبيرة!
وأنت - يا أحمد - ما تهمتك؟
تهمتي كبيرة أيضاً، فأنا كنت أهرّب مواد بترولية في خزان سيارتي بين

مناطق غصن الزيتون الَّتي يسيطر عليها الجيش الحرّ، وبين مناطق هيئة تحرير الشَّام، أراد أحد أفراد الحاجز أن أعطيه هدية، فهو لم يسمها رشوة، وعندما رفضت، وتعاركت معه وجدت نفسي كما تراني في هذا الجبل المحصَّن

وهناك صديقي عارف، ناداه فسلَّم عليهما.
قال له محمد: أخبر صديقنا الجديد خالداً ما تهمتك؟
كنت منتسباً للجيش الحرّ، وعندما تصارع الطَّرفان جلست في بيتي حتَّى لا أوغل بدماء المسلمين، وعندما انتهت المعارك أردت السَّفر إلى مدينة إعزاز طرف الجيش الحرّ، فاعتقلوني على الحاجز وإلى الأن ومنذ سنتين أنتظر المحاكمة ولمّا تأتِ بعد
يا للهول! أنحن بمناطق الثَّورة أم بمناطق النِّظام! فمن يسمع المظالم يرى أنَّ أسداً يستنسخ نفسه في كلّ منطقة يقال عنها محررة من سلطته، قال خالد

كيف الوضع في الخارج، فنحن مقطوعون عن العالم الخارجي، ولا نسمع أخباراً إلَّا عندما يأتينا معتقل جديد
الوضع غير مطمئن ؛ فقد سيطر أسد على الرِّيف إلى أطراف سرمين.
يا للهول! وكيف سمح له الثُّوار بذلك! سأل عارف مستهجناً.

ردَّ خالد: الثُّوار مساكين مثلنا ومن يتحكم بالوضع هو من يفاوض وينسحب، أتعلمون أنَّ شبيحة أسد نبشوا المقابر في الرِّيف الإدلبيّ المحتل، كما أنَّهم لم يرعوا حرمة لقبر الخليفة عمر بن عبد العزيز فنبشوه أيضاً، وهدّموا سقوف المنازل ليسرقوا الحديد منها، هذا غير الأبواب والنَّوافذ وحتَّى أرضيات البيوت وتابع: قسماً بالله لم يشهد التَّاريخ غزاة حفاة عراة جائعين أنذالاً كجيش أسد العقائدي كما يصفه إعلامه، ولكننا - أهل الغوطة - على الرَّغم من تركنا مناطقنا قد أذقناه الويل والموت ونحن

بعيـدون عنهـم
وكيف ذلك؟!
فخّخنـا الأجهـزة الكهربائيـة لمعرفتنـا المسـبقة أنَّ جيـش (التَّعفيـش الأسـدي) سيسـرق البيـوت ومـا فيهـا، فعندمـا كان يفتـح الجنـدي بـاب الثَّلاجـة تنفجـر في وجـه وقـد خسـروا كثيـراً مـن حثالاتهـم، إلـى جهنـم وبئـس المصيـر

وقـد سـمعت قصّـة حقيقيـة طريفـة عـن أحـد الجنـود الَّذين قتلـوا بريـف إدلب، فعندمـا شـيَّعوا جثمانـه بإحـدى قـرى جبـل النَّصيريـة، شـتم أقـارب المتوفـى بشـار أسـد، فـرَّد عليهـم الضَّابـط: اخرسـوا، أمـا كفاكـم أنَّـا سـترنا على قتيلكـم وجعلنـاه شـهيداً وشـرّفناه بترفيعـه إلـى رتبـة أعلى، وفي الواقـع سـقط مـن الطَّابـق الرّابـع وهـو يحـاول فـكّ جهـاز التَّكييـف ليسـرقه
ضحكوا من وجعهم ومن مآسيهم وممَّا آلت إليه أمورهم.

النِّهاية

بعد عامين من السِّجن والتَّعذيب والإهانة في سجن عَصيٍّ بُني خصّيصاً بعد الثَّورة على أراض محررة، ليُسجن فيه كلّ مَن تفوَّه بكلمة، أو حرّر عقله ليرى ما يفعله من ركب على الثَّورة، فُكَّ أسرُ خالد فجأة، دون محاكمة أو تعويض أو حتَّى كلمة اعتذار

وصل إدلب وليس له إلَّا صديقه براء الَّذي استقبله بحفاوة غير مسبوقة، لكنه نقل إليه خبراً مزعجاً أنَّ أمّه ماتت بعد أن قُطعت رجلها وحصل معها مضاعفات من المرض فبقي خالد وحيداً

حزن خالد على أوَّل خبر صدمه بعد خروجه من السِّجن، واتصل بأخيه وأولاد عمّه ودون أن يسأل براء قال لهم: إنّي وبراء نريدالهرب إلى ألمانيا لم يُقم خالد إلَّا بضعة أيام في إدلب ؛ فقد اتفق مع مهرب، وخلال أسبوع كانا على شواطئ اليونان، وقد اختصر شاهر الطَّريق فأرسل لهما جوازَي سفر هولنديين مزوّرين، وصعدا طائرة من أثينا إلى هانوفر مباشرة وقد كان الأقرباء بانتظارهما

الخاتمة

إنها ليست رواية خيالية مستوحاة من عالم الأوهام، بل هي كارثة ونكبة حقيقية حلَّت بأهل سورية فجعلت نهارهم حالك الظُّلمة، وأفقدتهم القدرة على الصَّبر، إنها مصيبة العصر الحديث في العالمين العربي والإسلامي، فقد عانى السوريّون من احتلال أشدّ شراسة وتعسّفاً من احتلال الصَّهاينة لفلسطين، وقد يكون أبشع من حملات التّتار على المنطقة العربية

إنَّه احتلال الطَّائفة النُّصيرية بلاد الشَّام واستعباد أهليها، وسيكتب التَّاريخ في فصوله ما فعلته عائلة أسد، ومن ورائهم طائفتهم من مجازر وفظائع تضيق آلاف الكتب والرِّوايات عن استيعابها، وسيكتب التَّاريخ أنَّ عاصمة الأمويين وأرض المحشر تخلّى عنها الأشقّاء العرب والإخوة المسلمون قبل أن يتخلى عنها الغرباء (وتلك الأيام نداولها بين النَّاس) وأقسم بمن رفع السَّموات وبسط الأرضين، أنّنا سنعود يوماً فاتحين، وإن لم نستطع فأبناؤنا وأحفادنا سيفعلون ذلك بإذن الله

محمد ظلال محمد بديع المعلم